http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب: الدعوة في شنقيط بين الإفراط و التفريط
المؤلف: محمد سالم بن محمد الأمين المجلسي
المصدر: الشاملة الذهبية

الدعوة في شنقيط
بين الإفراط والتفريط

الكاتب
محمد سالم ولد محمد الأمين المجلسي

بسم الله الرحمن الرحيم
لمَّا كان المجتمعُ الشنقيطيُّ مُجتمعًا مُتَقَبِّلا للخير، لِما خوَّله الله من موروث عِلْمِي وثقافي تَبَوَّأَ به مكانة عالية ومنزلة رفيعة بين المجتمعات المسلمة، وجدت فيه الدَّعوةُ إلى الخير سَبيلا للانتشار وروحا تُبْقِي جذوتها حيَّةً في النفوس، إلا أنَّه قلَّما يسلمُ العمل البشري من إفراط أو تفريط، أو غُلو أو تقصير، وهذا ما وقع في هذه البلاد في أيامنا، حيث أفرط قوم في منهج وأسلوب ووسائل الدعوة، بينما فرَّط آخرون، وجمع آخرون بين الوَصْفين، فأفرطوا في بعض الجوانب وفرَّطوا في بعض.
والحق بين الطرفين كالحسنة بين السَّيئتين، والفضيلة بين الرذيلتين، قال ابن القيم رحمه الله:" والفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طَرَفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضِدَّان له، تقصير ومجاوزة فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين "، إلى أن قال: " والدِّين بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسُّنة قَصْد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه " (1).
والدعوة بين الإفراط والتفريط والغلو والتقصير أدعَى للقبول وأحظى بالبقاء وعند خروجها إلى أحد الطرفين تفقد الحماية، وتقترب أكثر إلى الهلاك والفناء، ذلك لأن الطَّرَفَ واجهة للمخاطر وليس محميا.
كانت هي الوسطَ المَحْمِيَّ فاكتنفت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وقبل الكلام عن أوجه الإفراط والتفريط في الدعوة في هذا المجتمع نُلقي نظرةً عليه، لأن معرفة الواقع مما يُيَسِّرُ سبيلَ الدَّعوة، والداعية ملزم بفهم الواقع ومعرفة حياة أهله لتَتَسَنَّى له مهمتُه، وتتجَلَّى له الأولويات، ويختار الأسلوب المناسب.

(1) الروح 2/ 752.

المجتمع والواقع العلمي

1. واقع المجتمع الشنقيطي
2. الحركة العلمية
3. الدعوة للنهج السليم

1. واقع المجتمع الشنقيطي.

بداية الدعوة والتعليم:

مع أن الفتح الإسلامي بدأ يمتد إلى الصحراء سنة 116هـ بقيادة " حبيب بن عقبة " وامتد إلى مصب نهر السنغال، إلا أن المؤرخين يقولون إن أول معلم عرفته البلاد هو عبد الله بن ياسين الجزولي، وقد طلب يحى بن إبراهيم من أبي عمران الفاسي من يذهب معه إلى بلاده، ليُقرئ القرءان ويُعلم لغة العرب، فأرسل معه ابنَ ياسين معلما، حيث أسس"رباطا"كان يُعَدُّ بعد ذلك بداية انطلاق "المرابطين" (1).

وكان المرابطون دعاةً إلى الدين، ومجاهدين لنشر الإسلام وتعليم القرآن و اللغة العربية، ولا يقطعون أمرًا دون اللُّجوء إلى العلماء، كما هو شأن قائدهم أبي بكر بن عمر اللمتوني.

وقد ذكر بن خلكان في"وفيات الأعيان" أن أبا حامد الغزالي وصل الإسكندرية مسافرا إلى مراكش لِلِقاء يوسف بن تاشفين، لِمَا سَمِع من سجاياه الكريمة واعتنائه وإجلاله للعلماء، وجاءه نعيُه وهو في طريقه إليه، فعاد إلى وطنه في "طوس".

ونشر المرابطون المذهب المالكي واتَّبعُوا "نهج السَّلف" في العقائد ولم يَسلموا من حملات دعوية ضدهم، كما فعل ابنُ تَوْمَرْتْ زعيم "الموحدين"، وقد وضع الإمام الحضرمي كتابا سماه "الإشارة في تدبير الإمارة" (2) بَيَّنَ هو الآخر اعتناءَ المُرابِطين بالكتابة والتدوين ولو نسبيا لاشتغالهم بالجهاد ونشر الدين بين الأُمِّيين.

المدارس:

رُبَّما تكونُ بدايَتُها مع الرِّباط الذي أنشاه عبدُ الله بنُ ياسين، وكان المسجدُ في المُدُن القديمة مَحَلاً للتدريس، يُدَرَّسُ فيه القرآن والحديث والسيرة واللغة وغير ذلك ..

(1) موسوعة حياة موريتانيا للمختار بن حامدن 1/ 10.
(2) حققه علي سامي النشار ونشرته دار الثقافة بالمغرب سنة 1401هـ

و أقدمُ المدارس تلك التي ازدهرت في المدن القديمة بعد تأسيسها مثل " وادان" و " شنقيط " و" تيشيت" و "ولاته " التي وصف ابنُ بطُّوطة في رحلته بقوله عن أهلها: " محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن .. " (1).

وبعد تفكك كيانِ دَوْلَةِ المرابطين وأُفُول نَجْمِ كثير من المدن القديمة، بدأت

المدرسة تأخذ طابعا آخر بدويا متنقلا، تَشَكَّل فيما عُرِفَ بالمحظرة التي عَرَفَتْ ازدهارا كبيرا خلال القرن 13هـ، فظهرت محاظرُ عريقة، تُدرِّس كافَّة العُلوم الشَّرعية، شُدَّت إليها الرِّحالُ من كل مكان.
وفي هذا القرن دخل التَّصوُّف إلى البلاد فزاد من تنوع ثقافة المحظرة (2). وربما وُجِدت بعض السَّاحات المعروفة لاجتماع العلماء والشعراء وأهل الرأي كساحة " دبرار" في تيشيت التي يقول أحمد ولد محمد بوقفة في شأنها:
حازت مزايا جمَّةً دبرار ... فيها السَّراةُ المُجَّدُ الأخيارُ

المستوى العلمي:
وقد ظهر خلال هذا القرن -13هـ- علماءُ موسوعِيُّون وشعراءُ عمالقة أسسوا لنهضة علمية لم تشهد البلاد مثلها، بل امتدت إلى أصقاع الأرض، يقول المختار ولد بون الجكني في قصيدته التي يقول في أوَّلها:
حَدَتْ حُدَاةُ بني يحيى بنِ عُثمانَا ... إبْلِي بزير فزمرانٍ فوادانا

إلى أن يقول:
و نحن رَكبٌ من الأشراف مُنَتظِمٌ ... أَجَلُّ ذا العصر قدرًا دُون أدنانا ...
قد اتَّخذنا ظُهور العيس مدرسةً ... بها نُبَيِّن دينَ الله تبيانا ...
على نجائبَ هوجٍ لا وَنَاءَ بِها ... تَطْوي المهامهَ بُلدانًا فَبُلدانا

(1) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص442.
(2) راجع حياة موريتانيا 2/ 81.

ورُبَّما وقع النَّقْصُ في بعض العُلوم، وقلةُ إقبال الطلبة عليه، كما قال أفلواط ولد محمدٌّ الجَكني في أول نظمه لتنقيح الفصول " للقرافي"
أصبح العلمُ فاقدَ الطُّلابِ ... تَرَكَتْهُ الشُّيوخ بَلْهَ الشَّبابِ ...
غَيْرَ رَفْضٍ من المشايخ نزرٍ ... قد تولَّوا وآذنوا بالذَّهاب

إلى قوله:
ذاك علم الأصول أشرفُ علم ... ذُو العِباراتِ والمعاني العِذابِ (1)

العلماء:
وقد تَمَيَّزَ العلماءُ في هذا العصر بِطُول الباع، وسَعة الإطلاع، وكانوا مُتفرِّغين للعلم والتَّعليم في أكثر الأحيان، ويتبوَّءُون مكانةً قَبَلِيَّةً أو روحية تَفْرِضُ عليهم القيام بأعمال أخرى أحيانا.
ومما يبين لنا الموسوعية التي تميز بها العلماءُ الشَّنَاقطة، ما قاله حرمة ولد عبد الجليل في شيخه المختار ولد بونه:
دمن دعتك إلى القريض فإن تُجِب ... فَلِمِثلِها يُهْدَى القريضُ ويُندبُ ...
وإذا سكتَّ عن الجواب لدمعةٍ ... فاضَتْ فَذَاكَ من الإجابة أَصْوَبُ ...
أما النَّسيبُ فلا يُسُوغُكَ ذكرُه ... عصر التَّعلم والمشايخ يعذبُ ...
شاقتك أطلالٌ بَلِينَ لَهُمْ وما ... شَاقَتْكَ سُعْدَى إذْ نَأَتْكَ وزَيْنَبُ ...

كُنَّا مَعَ البُونِيّ في عَرَصَاتِهَا ... هالاَت بَدْرٍ لمْ يشبها غَيْهَبُ ...
فيها تَجمَّع سِيبوَيهِ وَيُوسُفٌ ... والكاتِبِيُّ والاَشْعَرِيُّ وأشْهَبُ

(1) تاريخ أصول الفقه في المحظرة الموريتانية ص244.

ومن أمثلته ما ذكره البرتلي في"فتح الشكور"عن أحمد باب التمبكتي أنه مكث بمراكش يقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك و ألفية العراقي فختمت عليه عشر مرات و تحفة الحكام لابن عاصم وجمع الجوامع للسبكي وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي وكذا الشفا والمعجزات الكبرى للسيوطي وشمائل الترمذي و الاكتفاء لابن الربيع الكلاعي ... (1)
الواقع العلمي:
كان التَّقليدُ هو السائدَ، وممَّا يُبَيِّنُ لنا ذلك، ما ورد في"الحاوي للفتاوى (2) " للحافظ السُّيوطي تحت عنوان " أسئلة واردة من التكرور في شوال 898هـ " في رسالة اسمها " مطلب الجواب بفصل الخطاب "، أرسلها محمد بن محمد بن علي اللَّمتوني يسأل عن فقهاء في تلك البلاد، عادتُهم تَرْكُ القرآن والسنة، وأخذُ الرسالة والمُدونة الصُّغرى وابنِ الجلاب والطُّلَيْطلي وابن الحاجب، حتى عادَوا مَن يُفَسِّر القرآن وإذا سمعوا آيةً تُتلى لتفسيرها نفروا عنها نفرة الحمر الوحشية.
ثم نال مختصرُ خليل منزلة لا مثيل لها، وانحصر التَّدريسُ والقضاء والفُتيا على ما فيه، وأصبح الحَقُّ عند الكثيرين لايُبْتَغَى إلاَّ منه حتَّى جَرَتْ على ألسِنة القوم مَقولةُ ناصر الدين اللَّقاني " نحن قوم خليليون إن ضَلَّ ضَلَلْنَا وإن اهْتَدَى اهْتَدَيْنَا "، وأشار إلى ذلك أحمد باب التمبكتي بقوله: " إن الله وضع عليه القبول -أي مختصر خليل - من زمن صاحبه إلى الآن، عكف الناس عليه شرْقًا وغرْبًا، حتى لقد آلَ الحالُ في هذه الأزمنة إلى الاقتصار عليه .. " (3).
الاغتراب لطلب العلم:
كان الناس يَبْذُلون الغالي والنَّفيس لِتَحْصِيل العُلوم، ويَقْطَعون المسافات الشاسعةَ لِنَيْلِه، بل ويَغْتَربون زمنا طويلا عن الأهل والوطن، ويَتَنَقَّلُونَ بين المحاظر يجوبون البلاد شرقا وغربا بحثا عن العلوم والمعارف.

(1) راجع فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للطالب محمد البرتلي الولاتي ص36.
(2) الحاوي للفتاوي 1/ 287 - 288
(3) نيل الإبتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي ص198.

من ذلك رحلة الشيخ سيدي الكبير إلى الشيخ سيد المختار الكنتي بعدما حصَّل المعلوم من المتون آنذاك، وقال مولود ولد أحمد الجوَّاد اليعقوبي في رسالةٍ إلى والدته وهو يَدْرُسُ عند لمجيدري:
يا راكبا بلغ المكبولَ والدتي ... لَعَلَّ أَمْريَ يُرضيها فتدعو لِي ...
أنِّي لَدَى ابنِ حبيبِ الله مُرْتجيا ... مِن نَيْله ما ارْتَجَتْ مِصْرٌ من النِّيلِ (1)

وقال محمد بنُ حنبل الحَسَني الذي أمضى سبع سنين يطلب اللغة فقط، لم يَرَ فيها أهلَه مع قُربهم منه:
أَضرمَ الهَمَّ سُحَيْرا فالْتَهبْ ... لمعُ برق بِرُبَيَّاتِ الذَّهبْ ...
في شَماريخَ ثِقالٍ دلح ... كتهادي العيس في الوعث النكبْ

إلى قوله:
إنَّ خَيْرَ الزَّاد يا صاح التُّقى ... فبه المجدَ الْتَمِسْ لا بالنَّسبْ ...
في التقى عِزٌّ وكُثْرٌ وغِنى ... دون سُلطان وجُند و نشبْ ...
هو دون العلم عنقا مُغرب ... فاطَّلبهُ فَلَنِعمَ المطَّلَبْ ...
جَرِّع النَّفْسَ على تَحْصيلِهِ ... مَضَضَ المُرين ذُلٍّ وسَغَبْ ...
ودَعِ المالَ إلى تَطلابه ... تَكْتسِبْهُ فلَنِعْمَ المُكتسبْ ...
هو حَلْيُ المرء في أقرانه ... وهو عند الموت زحزاح الكرب ...
وهو نورُ المرء في اللَّحد وإذْ ... ينسل الأقوامُ من كلِّ حدَبْ ...
يا غَريبًا يطلُبُ العلمَ اصْطبر ... إن مَبْدأَ العلم من قبلِ غرب ...
ما سعى في الرِّبْح ساعٍ سعيَكم ... بل سِواكم سعيُه جِدٌّ نَصَبْ ...
إن تقولوا منعتنا درسَهُ ... أزم الدَّهر والأَعوامُ الشُّهُبْ ...
قلتُ هل يحتال في دفع العَصَا ... مَن أظلَّتْهُ الحساماتُ القُضُبْ (2)

(1) الوسيط.
(2) الوسيط ص314.

الجهل وعدم العمل بالعلوم:
ومع ذلك تبقى ثَمَّة خصالٌ وأخلاق تدل على الأقل على نوع من الجهل أو عدم العمل بالعلوم، مع أن الناسَ يختلفون في ذلك، فمنهم من يعزو ذلك إلى فتاوي بعض العُلماء التي وجدت صدًى كبيرا في جوٍ من التقليد أفلت فيه أنجمُ الهداية.
ومن أمثلة ذلك ما ذكره محمد ولد الطلبه:
أهاجك برقٌ بالغُويشاء مائلُ ... كما لاح جفنُ السَّيف و السَّيفُ ثاملُ ...
ومَغنًى بميثاء القرارة بَعْثَرَت ... معالمَه هوجُ الرِّياح الجوافلُ ...
وقفتُ بها فاسْتَجْهلتني رسومُها ... وما الجهل إلا ما تهيج المنازلُ ...
فدع ذكرَ أيام الشباب فذكرُها ... أخيرٌ وقد ولَّى ضلال وباطلُ ...
ولكنْ إلى الرحمن فاشْكُ مصيبةً ... ألمَّتْ بنا ما إن إليها المعاضلُ ...
مصيبة دين الله أمسى عمادُه ... كمنفوس حُبلى غرقَّتْهُ القوابلُ

إلى أن يقول:
يُصلُّون لا يأتونها بطهارةٍ ... وعند الأذان نوؤهم مُتكاسِلُ ...
يُصلُّون دابًا بالتُّراب جَهالةً ... بأفواههم تُربُ الحصى و الجنادلُ ...
يقولون مرضى هل سمعتم بأُمَّة ... بها مرض قد عمها لا يزايلُ (1)

ومن ذلك قول مولود ولد آغشمَّمْتْ

هذا وقد شاع بأقصى المغربِ ... هجرُ الوضوء لا لخوف العطبِ (2)

---

(1) الوسيط ص186 - 187،ديوان ولد الطلبة 341 - 345.
(2) الوسيط ص 356.

2. الحركة العلمية.

ونتيجةً لانتشار المعارف وعودة العلماء من رحلاتهم العلمية، ظهرت مدارسُ علمية وفكرية جعلت حركة العلوم والثقافة تنمو وتزدهر.

1. المدرسة الكلامية:

وتتميز هذه المدرسة بالتركيز على علوم اللغة و المنطق والكلام والجدل وعلوم الفقه .. وتعتبر حاملَ لواء الدفاع عن العقيدة الاشعرية، حيث رَكَّزت اهتمامَها على تدوينها وشرحها والذب عنها، هذا مع تمذهبها في الفقه بمذهب مالك ووجود التَّصوف في كثير من أهلها، إلا أن علم الكلام ترك مسحة واضحة عليها ومن أبرز علمائها المختار بن بون و محنض باب ولد اعبيد.

2. المدرسة الفروعية:

وتتميز هذه المدرسة بالتقليد، ولكثيرا ما قال علماؤها بحرمة الاجتهاد ووُجوب التقليد، وهي في الحقيقة مدرسة خليلية، إذ لا تكاد تخرج عن مضمون المختصر في مجال العبادات والقضاء والفتوى، كما تُدَرِّس هذه المدرسة كافة العلوم الشرعية وتُولِيها اهتماما كبيرا إلا أن المختصر هو المتصدر حيث اختصت به وشرحته ونظمته ووضعت عليه الحواشي الكثيرة.

ولا تخرج هذه المدرسة عن فقه ابن القاسم، بل تَحْمل المذهَبَ المالكيَّ عليه مؤكدة أن مرجعيتها الخليلية تتماشى مع العمل بالكتاب والسنة، وأبرز مثال على ذلك محظرة أهل محمد سالم المجلسيين.

3. المدرسة الصُّوفية:

ظهرت هذه المدرسة بقُوَّة بعد انتشار التَّصَوُّف، وتتميز بكثرة المعارف، فهي على ما عليه المدرسةُ الكلامية والمدرسة الفروعية من العلوم " الظَّاهرة " وجمعت إلى ذلك العلوم"الباطنية"، أو بتعبير آخر عندهم جمعت علمَ الحقيقة إلى علم الشَّريعة، فساهمت بقُوَّة في إثراء الثقافة والمعرفة من خلال نظرتها الفلسفية ومن " أقطاب هذه المدرسة الشيخ سيد المختار الكنتي والشيخ ماء العينين.

4. المدرسة السَّلَفية:

وكانت نتيجةَ تنوع المعارف وكثرتها وتعدد الرحلات التي عاد أصحابُها بأفكار إصلاحية أثارت جدلاً علميًا واسعً النِّطاق، وقد وقع النِّزاع القوي بين هذا التيار وبين الفروعيين وأهل الكلام والتَّصوف، ومِن أبْرز علماء هذه المدرسة لمجيدري ولد حَبَّلَّ اليعقوبي.

5. المدرسة الجامعة:

وهي مدرسة يختلف أصحابُها عن المدارس الأخرى في بعض المسائل الأساسية، ويتفقون معها في بعض، وتتميز هذه المدرسة بالموسوعية وخير مثال ليها الشيخ محمد المامي وكذلك محمد يحيى ولد سليمة اليونسي.

الخلافات والمناظرات:
نظرًا لانتشار المعارف وازدهار الثقافة ظهرت خلافاتٌ حادة في بعض الأحيان نتجت عنها ردودٌ وتآليفُ مفيدة ومساجلات شعرية رائعة، بيَّنت طولَ الباع وسعة الاطلاع الذي تميز به القوم، مِمَّا أثْرَى السَّاحةَ العلمية، وقد وقعت النزاعاتُ في مختلف المجالات العَقَدِية والفقهية وحتَّى اللُّغوية، كما قد يقع النِّزاعُ بين أهل المدرسة الواحدة، فتنتج عنه مساجلات ممتعة تُظهر بجلاء اختلافَ الرُّؤَى و إن اتَّحَدت المشارب.
التأليف:
من الناس من رأى عدم جدوائية التأليف ونهى عنه كما يقول محمد اليدالي: " إذ من الناس من ينكر التصنيف في هذا الزمان، قائلاً إنَّ كُتُبَ القدماء أولى بالاقتداء، وإنَّ ما حدث من التَّصانيف بدعة " (1).
ومع ذلك صَنَّفَ العُلماءُ في سائر الفنون، ولعله لم يَصِلْ إلينا إلا القليل من مُصنفاتهم، وكانت الدوافعُ للتَّصنيف كثيرة منها الطلبُ، ومنها بغيةُ التبليغ، ومنها الرَّغبةُ في تدوين العلم و التعليم .. و ربما وقعت عن غير قصد، كما هو حال النوازل التي تُجمع من فتاوى العلماء، و الحواشي التي توضع عند التدريس، والكنانيش التي تُجمع فيها النَّوادِرُ والشَّواهد و الفوائد، حتى تصبح كتابا جامعا.

(1) راجع " فرائد الفوائد وشرح قواعد العقائد " (مخطوط بدار الثقافة رقم2941).

هذه جوانبُ من حياة الشَّنَاقطة ينبغي للداعية الاطلاعُ عليها، ليسلك القصدَ في دعوة وَرَثتهم إلى الخير، والحفاظ على الهوية الإسلامية النقية، بعيدا عن الإفراط و التفريط.
التَّجديد:
إنَّ من خصائص هذه الأمة العظيمة تجديدَ منهجها حيث من الله عليها ببعث من يجدد لها أمر دينها على رأس كل مائة سنة، يُحْيِي الله به ما مات من الدين ويقمع ما أُحدث من البدع، ويظهر على يده حقيقةَ الدين بجلاء ووضوح، فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدد لها دينَها) (1).
" و إن أبرزَ مايَتَمَيَّز به مجتمعُنا اليوم غيابُ فكر التَّجديد، وفُشُوُّ عائق التقليد عند أغلب النَّاس، ذلك لما يحملون من إرث خلَّفَه الشناقطة، جعله المجتمعُ فَخْرًا يُنازل به أطوادَ المعالي، وذُخرًا لبناء باذخ الأمجاد، لا يحتاج إلى البعث والإحياء، فغابت ضرورةُ وزنه بميزان الشرع لمعرفة ما فيه من الشَّوائب، ومانَقَصَ منه بفعل عوامل التَّعرية عَبْرَ الزَّمان " (2).
مظاهر الإفراط والتفريط في المنهج:
وقد أدرك الشناقطةُ بعضَ مظاهر الإفراط والتَّفريط، خصوصا في المنهج يقولُ محمد اليدالي في تفسيره وهو بخطه: " وما جرت به الحالُ اليومَ من عدم الخروج عن مذهب مالك من مقلديه فليس بمخلص للورع " (3).
وأنكر عليهم محمذن فال ولد متالي في كتابه "فتح الحق" (4) تعلقهم بكل ما

سطر في الطُّروس من غير تصحيح عزو ولا تَوَثُّق بناقله ".
الاجتهاد:
وقد نقل القرافيُّ المالكيُّ أن مذهبَ مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد، و إبطال التقليد.

(1) رواه أبو داود4291 وصححه الحاكم وابن حجر و السيوطي وقال الزين العراقي سنده صحيح.
(2) فكر التجديد وحاجز التقليد، صحيفة "الفجر" العدد 63.
(3) الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز, مخطوط.
(4) مخطوط.

وقال التسولي في كتابه " البهجة " الذي شرح به تحفة ابن عاصم: " واختلف الأصوليون هل يمكن خلو زمان من الأزمنة من الاجتهاد، إذ القول بانتفائه فرع عن إدراك مرتبته ". ومع وجود دعوات للاجتهاد إلا أنَّ الدَّعوات المناهضة له كانت أكثر، حيث كانت تُنادي بمنع الاجتهاد في البلاد، بل وفي غيرها كما يقول النَّابغة الغلاوي في " بُو اطْلَيْحِيَّه ":
والاجتهاد في بلاد المغرب ... طارت به في الجَوِّ عَنْقَا مُغْرِبِ

وقال سيد عبد الله ولد الحاج إبراهيم في مقدمة "مراقي السعود" بفقدانه في هذا القطر:
هذا وحِينَ قد رأيتُ المَذْهَبَا ... رُجْحانه له الكثيرُ ذَهَبَا ...
وما سِواهُ مثل عَنْقا مُغْرِبِ ... في كل قطرٍ من نواحي المَغْرِبِ ...
أردتُّ أنْ أَجْمَعَ مِنْ أُصُولِهِ ... ما فيه بُغْيَةٌ لِذِي فُصُولِهِ

ثم قال بعد ذلك:
و الأرض لاعن قائم مُجْتَهِدِ ... تَخْلُو إلى تَزَلْزُلِ القواعِدِ

وقد كانوا يُقَسِّمُون الناس إلى مجتهد ومُقلِّد، فمَن لم يُحَصِّلْ شُروطَ الاجتهاد ويَبلغْ مرتبته أوجَبُوا عليه التقليد الذي فرض نَفْسَه منذُ القرن الثامن كما يَقُولون إنَّ النَّظر في الأدلة مَضلة مكتفين بالتقليد يقول محمد بن محمد فال:
وأهلُ مَغربٍ عليهم يُمْنَعُ ... غيرَ الإمامِ مالكٍ أن يتبعُوا ...
لفقد غيره وكُلُّ خارجِ ... عن نهجه عَدُّوهُ في الخَوَارِجِ

وقال بعضُهم:
وعالمُ الوقت إذا هو اسْتَدَلْ ... بالذِّكر والحديث ضلَّ و أضَلْ

ونقل عنهم محمد عبد الله ولد محمد آسكر في نظمه في نصر السُّنة قولهم:
هذا الحديثُ صَحَّ لي عن النَّبِي ... لكنَّه مُخالِفٌ لمَذْهَبِي

مسلك النظر و التَّجديد:
والذين سلكوا مسلك النظر من العلماء إنما خرجوا بما يُمليه الرُّجوع إلى الحق ويقتضيه العملُ بمنهاج الأسلاف الأماجد، وليس ذلك طعنا في المذاهب أو التوجهات، وإنما هو عيْنُ التَّمذهب الصحيح، وأحسن محنض باب ولد اعبيد الدَّيْماني حين قال:
وضَحَ الحقُّ يا لبيبُ فسلِّمْ ... إنَّ ترْكَ المِراءِ فيه سَلامَهْ ...
ليس مَنْ أخْطأَ الصَّوابَ بِمُخْطٍ ... إنْ يَؤُبْ لاَ وَلاَ عليه ملامَهْ ...
حسناتُ الرُّجوع تُذهِبُ عَنْهُ ... سيِّئاتِ الخَطَا وتَنَْفِي الملامَهْ ...
إنَّما المُخْطِئُ المُسِي مَنْ إذا ما ... وضَحَ الحقُّ لَجَّ يَحْمِي كلامَهْ

فقد خالف ابنُ القاسم مالكًا رحمه الله في كثير من مسائل النظر و الاجتهاد، من ذلك قولُ خليل في باب الحجر من مُخْتَصَرِه: " وتصرُّفه -يعني السَّفيه - قبل الحَجْرِ عليه محمولٌ على الإجازة عند مالك لا ابن القاسم " (1).
وفي حاشية الحطَّاب على المختصر أنَّ ابْنَ القاسم كان يستنكر قول مالك هذا ويقول: " هذا القولُ ليس بشيء " (2).
وقد ذكر أبو عمر بنُ عبد البر حكمَ التَّقليد والفرقَ بينه وبين الإتِّباع و الاجتهاد في جامع بيان " العلم و فضله "، والحق في قول الأصوليين وجود الواسطة بين المجتهد والمقلِّد، والعُلماء يَذُمُّون التَّقليد ويَمنعُونه، ويَدْعون للاتباع، وقد جمع ابنُ دقيق العيد كتابا فيه ما خالف فيه الإمام مالكا، أما اللَّخمي فقد صار مضرِبَ المثل في مخالفة المذهب حتى قال ابن غازي:
لقد مزقت قلبي سهام جفونها ... كما مزق اللَّخْمِيُّ مذهبَ مالك

وقال النابغة الغلاَّوي في "بُو طْلَيْحِيَّه "
واعتمدوا تبصرةَ اللخميِّ ... ولم تكن لجاهل أمِّيّ

_____
(1) مختصر خليل ص205.
(2) حاشية الحطاب 4/ 39.

لكنه مزق باختياره ... مذهبَ مالك لدَى امتيارِهِ

وقال فيه عن مختصر خليل:
ورُبَّ من يطعن في الحكم إذا ... لم يك من متن خليل أُخذا ...
وذاك من قصوره وجهله ... وقلة العلم بموت أهله ...
وليس من قوادح الدليل ... ألا يكون الحكم في خليل ...
وربما قد غرَّه مبينا ... لما به الفتوى وكان بيَّنا ...
عدم كونه محيطا بالفروعْ ... بقوله "مختصرا " عند الشُّروعْ ...
ورُبَّ حُكْمٍ في خليل ضُعِّفا ... لم تَجُزِ الفتوى به وزُيِّفا ...
كقوله في الغصْب و التعدِّي ... " أو دل لصا " (1) قد يفوت عدِّي ...
راجعْ شُروحَ الشيخ أوفتحَ اللَّطيف ... في ذكر ما ورد فيه مِنْ ضعيفْ

الدَّعوة للاجتهاد والنَّظر:
وقد ظهر الكثيرُ من العلماء ممَّن يدْعون للاجتهاد والنظر، ويُحَذِّرون من مغبَّة التقليد وبذلوا في ذلك جهدهم، منهم لمجيدري ولد حَبَّ الله الذي قال في رسالته "ما وجه تحريم تقليد الأئمة الأربعة دفعة واحدة، فيُقلِّد هذا في مسألة، وهذا في أُخرى فإن قلتم المصيبُ منهم واحد، فعيّنوا لنا هذا الواحِدَ المُصيبَ الَّذي أتباعُ غَيْرِهِ ضالُّون وإنْ قُلتُم كلُّهم مصيبون كما المقرّي:
ومالكٌ وأهلُ الاجتهاد ... كلٌّ إلى نهْج الصَّواب هادِ

فكيف يحْرُم الانتقالُ من صَواب إلى صَواب، والجمعُ بين صوابٍ وصَوابٍ وقال رحمه الله:
آيُ الكتاب وأخبارُ النَّبِي وما ... جاء الثِّقاتُ به عن صالح السَّلف ...
ما اعتاض عنها سوى أعمى البصيرةِ عن ... نهجِ الحنيفية البيضاء ذو جنف ...
رَيْنٌ على القلب يَكْسُوه السَّوادُ كما ... يكسو المدادُ سوادا أبيض الصحف

(1) راجع شروح الشيخ أو " فتح اللطيف في ذكر ما ورد فيه من ضعيف ".

فالمصطفى حضنا عند اختلافِهِمُ ... على التمسك بالقرآن ذي الشرف ...
وبالذي سنَّ أو سنَّت صحابتُه ... طرًّا وحذَّرنا من بدعة الخلف ...
مُرَجِّماتُ ظنون غيرُ مجدية ... شيئا عن الحق بل تُفضي إلى التَّلف ...
فالحق إيَّاك أن تعدل سِواه به ... لا يُعدَلُ اللؤلؤ المكنونُ بالخزف

ومنهم محمد يحي ولد سليمة الذي يقول:
وقد تبرَّا كلُّ ذِي اجتهادٍ ... من حتم قوله بلا استعبادِ ...
وليس يُحتجُّ بقول عالم ... أو فعلِه دون دليل حاسمِ ...
فالفَتْوَ بالفُروع غيرُ هاديهْ ... بل هي بدعة طرت معاديهْ

فكان يقول بالاجتهاد بل يراه لنفسه كما في قوله:
ولست دون مالك والشافعي ... وأحمدَ بنِ حنبلٍ والتابعي (1)

ومنهم باب ولد الشيخ سيديا، يقول في أول كتابه " إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين ": "فهذه نقول قصد بها بيان أن الأَوْلى للمقلد لأحد الأئمة الأربعة إذا وجد خلاف إمامه عن أحد الأئمة الثلاثة في مسألة وتبين له رجحانُها على مذهب إمامه في تلك المسألة بموافقة القرآن و السنة الصحيحة المخرجة في الصحيحين أو نص الترمذي مثلا على صحتها.
ولم يجد مثل ذلك لإمامه دليلا من القرآن أو السنة الصحيحة موافقا لإمامه، ولا سيَّما إن اجتمعت هذه المُرَجِّحاتُ كلُّها، ومعها رواية عن إمامه، ويعملُ بما تبيَّن له رجحانُه إن كان متحريا للحق، ولا حول ولا قوة إلا بالله " (2).
وقال فيه يحض على التمسك بالكتاب و السنة: " ومن أعفى نفسه من النظر و أضرب عمَّا ذكرنا وعارض السنن برأيه ورام أن يردها إلى مبلغ نظره فهو ضالٌّ مُضل ومن جهل ذلك كله وتقحم في الفتوى فهو أشد عمى و أضل سبيلا " (3).

(1) مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظرية ص 306.
(2) إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين ص 93 - 94.
(3) إرشاد المقلدين ص 39.

وقال رحمه الله في سنة القبض نقلا عن البناني في حاشيته على شرح عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل عند قوله " وهل يجوز القبض في النفل ":
" وإذا تقرر الخلاف في أصل القبض كما ترى وجب الرجوع إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً {] النساء:59 [.
وقد وجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم حكمت بمطلوبية القبض في الصلاة شهادة ما في الموطإ والصحيحين وغيرهما من الأحاديث السالمة من الطَّعْن فالواجب الانتهاء إليها والوقوف عندها و القول بمقتضاها " (1).
ومنهم حفيده محمد ولد أبي مدين الذي نصر الكتاب والسنة و دعا إلى اتباعهما و إنكار البدع و نبذ التعصب للمذاهب في كثير من أنظامه وفي كتابه " الصوارم والأسنة في الذب عن الكتاب السنة "، وكذلك محمد بدر الدين بن عمار الشمسدي الذي دعا إلى النظر والاجتهاد ونبذ التقليد والتعصب للمذاهب في نظميه " ناصر السنة والكتاب " و " منع الرأي بعين الرأي " يقول:
وبعد فالتقليد هاك ما نُثِرْ ... فيه عن الملح وما عنهم أُثِرْ ...
يمنع تقليدٌ بإجماع على ... أمة من على الورى كُلاًّ علا ...
دون تنازع ولا خلاف ... في قول الاربعة و الأسلاف ...
وحدثت بدعته بعدهم ... و بذلوا في ردها جهدهمُ ...
وهي أشنع جميع بدعِ ... لِإسلام ثم هي أم البدع ...
وحرم التقليد للأمواتَ ... جميعُ أهل العلم والرواة

ويقول منكرا على القائلين أن العمل على" الفقه " لا الحديث:
وقولهم إن على الفقه العملْ ... ولا على الحديث عندهم عملْ

(1) إرشاد المقلدين ص 146 - 147.

المجتمع والواقع العلمي

1. واقع المجتمع الشنقيطي
2. الحركة العلمية
3. الدعوة للنهج السليم

فعقدي بحمد الله إمكان كل ما ... به اللهُ أو خيرُ البرية يخبر

وكذلك المامون ولد الصّفّي: يرد على المتكلمين و يحذر من قواعد الفلاسفة:
ما الدين إلا الذي تسعى لتوهنه ... آيُ النبي وآثار الهدى العتقِ ...

لا كل خبطٍ عن اليونان مبتدع ... قد سن بين أصول الدين مختلق ...
تحمي قواعد رُسْطا لِيسَ تحسبها ... دينًا لك الويلُ نبهناك فاستفَق ...
إن قلت ساغت لمن تمت قريحتُه ... أو أن تخلص لنا من مسلم تلق ...
ردا بأن أبا حفص قد اوردها ... وردَّها المصطفى منه على تأق ...
كما البخاريُّ في التوحيد أخرجه ... و الحبرُ أحمدُ و البزارُ في طرقِ (1)

وكذلك نجد باب ولد الشيخ سيديا يقول في إثبات صفات الله و التحذير من تشبيهها أو تعطيلها:
ما أوهم التشبيه في آيات ... وفي أحاديث عن الثقات ...
هي صفات وصف الرحمنُ ... بها وواجب بها الإيمانُ ...
ثم على ظاهرها نُبقيها ... ونحذر التأويل والتشبيها ...
قال بدا الثلاثة القرونُ ... و الخيرُ باتباعهم مقرونُ ...
وهو الذي ينصره القرآنُ ... و السننُ الصِّحاحُ والحسانُ ...
وكم رآه من إمام مرتضى ... من الخلائق بناظر الرضى ...
ومن أجاز منهم التَّأويلا ... لم ينكروا ذا المذهب الأصيلا ...
و الحق أن من أصاب واحدْ ... لاسيما إن كان في العقائدْ ...
فاشدد يديك أيها المُحقُّ ... على الذي سمعت فهو الحقُّ

وفي التحذير من الشرك في العبادة نجد محمد بدر الدين ولد عمار الشمسدي في نظمه في "التوسل و الاستغاثة " حيث يُنكر الاستغاثة بالمخلوق من دون الله، و الحلف به، وغير

(1) الوسيط 217.

ذلك، ونجد آبه ولد اخطور في " الأسماء و الصفات" يرد على المؤوِّلة والمشبهة و المعطلة و المحرفة ..
و كذلك نجد تحذيره الشديد من شرك العبادة خصوصا الاستغاثة بغير الله كما في تفسيره لسورة "النمل " عند قوله تعالى:} قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ {] النحل [.
وكذلك محمد سالم ولد عدود في مقدمة نظمه لمختصر خليل، الموسوم بـ"التسهيل والتكميل لفقه متن خليل " حيث يقول في إثبات الصفات:
وليس مثله علا شيء ولا ... يلزم ذا نفي صفاته العلا ...
فهو السميع و البصير المتصفْ ... بما به في نوعيِ الوحي وُصِفْ ...
يمر ما في وصفه جاء من ال ... وحي كما يفهم من فيهم نزلْ ...
من غير ما تكييف او تمثيلِ ... له ولا تحريف او تأويلِ ...
يُقال نفسُه كما قال"كتب ... ربُّكم " الآية " أما من نسبْ ...
ذاتا له فقد عنى التي لهْ ... ملته شرعته سبيلَهْ

و يقول في التحذير من الشرك:
و اجتنبوا الشرك الجلي و الخفي ... ولو بما فيه اختلاف الخلف ...

فأفردوه جل بالعبادة ... لا تشركوا في نوعها عباده ...
فلا تسموا ولدا عبد علي ... أو تنذروا لصالح أو لِولي ...
ولا تمسُّوا قبرا او تمسَّحوا ... ولا تَطُوفوا حوله أو تذبحوا

إلى قوله:
لا تجعلوا إذا دعوتُم وُسُطَا ... بينكمُ وبينه فَهْوَ خَطا

الدعوة لمكارم الأخلاق:
وهي أشهر و أظهر و قد كان المجتمع على قدر كبير من محاسن الأخلاق و جميل السجايا حيث المروءة و الورع و العفة والحياء .. توارث ذلك كابرا عن كابر، إلا أنه في جو الانفتاح ومع الغزوات الفكرية و الثقافية والأخلاقية على المجتمعات المسلمة وفي ظل غياب الإمامة التي تسوس الدنيا بالدين حقيقة أصبحت مهددة إلى حد كبير، مما يوجب على المجتمع إحياءها فيه و حمايتها من الضياع.
وقد وقع الإفراط في الأخذ بهذا التُّراث حيث أخذه أكثرهم بحذافره ولم يعرضوا عن شيء منه عملا وتبنيا، بينما وقع التفريط من آخرين حيث أعرضوا عن هذا التراث الزاخر و العطاء الفريد، ففاتهم ما سلم من الشوائب التي يجب ردها لمخالفتها للنهج القويم.
وكل هذا يجب على الداعية وضعه في عين الاعتبار وهو يبلغ رسالته وينشر دعوته.

الدعوة لمكارم الأخلاق
وهل ينفعُ الفتيانَ حُسْنَ وجوههمْ ... إذا كانت الأخلاقُ غيرَ حِسانِ ...
فلا تجعلِ الحسنَ الدَّليلَ على الفَتَى ... فما كلُّ مَصقُولِ الحديد يَمَانِي

أخلاق الداعية:
إن مهمة الداعية إلى الخير مهمة شريفة ونبيلة تفرض عليه التحلي بأحسن الأخلاق والعمل بأليق الأساليب، لتثمر دعوته وهي تسقى بمعين المحاسن الرقراق و يقبل الناس على قطوفها الدانية للظفر والفلاح، كما أن للدعوة إلى الخير متربصين بها و كائدين لأهلها، مما يقتضي هو الآخر التشبث بما لا يدع مجالا لسهامهم، ورُبَّما يسد كل الثغرات دون تحقيق مآربهم.
وليس العمل بذلك متقررا لأن الواقع يقتضيه أو لأن العقل يمليه فحسب، وإنما لأنه هدي رسول الله صلى الله عليه و سلم، أسوة الدعاة المخلصين، وقائد الأعزة المجاهدين.
وهذه الأخلاق التي هي نبراس يهتدي به الحيارى في دياجير الظلام، وقع الإفراط في تبنيها من جهة حيث مال البعض إلى التنازل و الوهن والمجاملة باسم الرفق واللين و التيسير والحكمة وفهم الواقع، بينما وقع آخرون في التفريط حيث مالوا إلى القساوة و الفظاظة و الانغلاق باسم الصدع بالحق و البراءة من المعرضين و الابتعاد عن سبيل المداهنة، ولهذا موضعُه كما أن لذلك موضعَه.
1. الإخلاص:
أول ما يجب على الداعية الأخذ به، الإخلاص في دعوته للخير فلا يريد بها ذكرا

ولا مغنما و لا جاها، لا يريد بها غير وجه الله كما قال سبحانه:} وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا {] الكهف:28 [.

و روى البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليُرى مكانُه فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله " (1).

فعلى الداعية أن يفرد الله في القصد لأنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه (2)، و من أشرك في القصد معه غيره ـسبحانه ـ تركه وشركه (3).

_____

(1) البخاري 2810.
(2) راجع سنن النسائي 3140 وحسنه الألباني في صحيح الجامع 1856.
(3) انظر صحيح مسلم 2985 وسنن ابن ماجه 4202.

وما أحسن قول ابن القيم: " العمل بغير إخلاص و لا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا ينقله ولا ينفعه " (1). و تحقيق الإخلاص صعب وعسير على النفس و لابد من صراع كبير معها لتحصيله يقول سفيان الثوري: " ما عالجت شيئا أشد علي من نيَّتي إنها تنقلب علي " (2)، و ما لم يحقق الداعية الإخلاص فستبقى دعوته خاملة لا أثر لها عليه فضلا عن غيره.

و قال عمر بن الخطاب: " من خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس " (3). و ذكر ابن القيم أنها منبع الخير و أصله ثم قال: " فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى وكان قصده وهمه و عمله لوجه الله سبحانه كان الله معه فإنه سبحانه} مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون {، و رأس التقوى و الإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق و الله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ و إن لم يكن معه فمن يرجو وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟ " (4).

2. الإتباع:

إن اخص ما يجب أن يتميز به الداعية إلى الله أن يأتم بالقرآن ويعمل بما فيه ويتبع الرسول صلى الله عليه و سلم و يقتفي أثره و يتأسى به.

وقد أمر الله عباده باتباع نبيه صلى الله عليه و سلم، فقال:} مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {] الحشر:7 [.

وأخبر سبحانه أن طاعته صلى الله عليه و سلم سبيل محبته فقال:} قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {] آل عمران:31 [.

_____

(1) الفوائد ص67.

(2) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 1/ 317.
(3) السنن الكبرى للبيهقي 10/ 150.
(4) إعلام الموقعين 2/ 178.

و جعله سبحانه أسوة حسنة فقال:} لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا {] الأحزاب:21 [، وبين سبحانه أن طاعته صلى الله عليه و سلم من طاعته عز وجل:} مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا {] النساء:80 [.
و رتب الله سبحانه الأجر الكبير و الخير الكثير على طاعته فقال:} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا {] الأحزاب:71 [، وتوعد المخالفين لأمره بالعذاب الأليم فقال:} لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {] النور:64 [.
فعلى الداعية أن يتعلم هدي النبي صلى الله عليه و سلم، و أن يجسد ذلك العلم واقعا في حياته باتباعه للنبي صلى الله عليه و سلم، كيف لا وهو الذي بذكره يربو الإيمان و تهتز مشاعر القلوب و يغمرها الحب ويدعوها داعي الشوق و تجتذبها جواذب الذكرى.
وقد قال كما في الصحيحين من حديث أنس وعند البخاري من حديث أبي هريرة: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده و الناس أجمعين) (1).
وأخرج البخاري عن عبد الله بن هشام قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم و أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال صلى الله عليه و سلم: لا و الذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: الآن و الله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال رسول الله عليه وسلم: الآن يا عمر) (2).
و قد كان الحسن إذا ذكر حديث حنين الجذع و بكائه (البخاري 3584) يقول: (يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم شوقا إلى لقاءه فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه) (3)، و قال مالك عن محمد بن المنكدر سيد القراء " لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا يبكي حتى نرحمه " (4).

_____
(1) البخاري 15 ومسلم 44.
(2) البخاري 3694.
(3) سير أعلام النبلاء 4/ 570 , جامع بيان العلم ص 572.
(4) سير أعلام النبلاء 5/ 354_355 حلية الأولياء لأبي نعيم 3/ 147.

ومن كان محبا له صلى الله عليه و سلم مشتاقا إلى لقاءه اتبع سنته ولا بد.
3. تقوى الله:
فمن اتقى الله بامتثال ما أمره به و اجتناب ما نهى عنه ميز بين الحق و الباطل فيدعو للحق و ينهى عن الباطل بما جعل الله له من نور وفرقان يستنير به في دعوته، يقول سبحانه:} يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إَن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}] الأنفال:29 [، و قال سبحانه:}

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}] الحديد:28 [، قال السعدي في تفسيره: " يعطيكم علما و هدى و نورا تمشون به في ظلمات الجهل " (1).

4. العلم:

والعلم يمن الله به على المتقين وهو سلاح الدعاة المخلصين وزادهم لتبليغ الدين ولا وسيلة للعمل بأحكام الإسلام و اتباع هدي النبي صلى الله عليه و سلم إلا بتعلم ما جاء به.

وقد قال الإمام البخاري في صحيحه: (باب العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى:} فاعلم أنه لا إله إلا الله {) فبدأ بالعلم (2).

ونصوص الوحي حافلة بالحض على طلب العلم و بذل الغالي و النفيس لتحصيله و استنهاض الهمم لسبر أغواره، و يكفي الداعية في الحض على التعلم و معرفة حدود الله والزجر عن القول بما لا يعلم قوله سبحانه:} قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {] الأعراف:33 [.

يقول ابن القيم رحمه الله: "} وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما فإنه يتضمن الكذب على الله و نسبته إلى مالا يليق به و تغيير دينه و تبديله ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه و تحقيق ما أبطله و إبطال ما حققه و عداوة من والاه و موالاة من عاداه وحب ما أبغضه و بغض ما أحبه ووصفه بما لا يليق به في ذاته و صفاته و أقواله و أفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثما، وهو أصل

---

(1) تيسير الكريم المنان 7/ 305.

(2) البخاري مع الفتح1/ 192.

الشرك و الكفر و عليه أسست البدع والضلالات فكل بدعة مُضِلَّة في الدين أساسها القول على الله بغير علم " (1).

فلا ينبغي للداعية أن يدعو بغير علم بما يدعو إليه، بل يحذر كل الحذر من أن يدعو على جهل أو ظن أو وهم أو شبه، فقد قال سبحانه:} وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً {] الإسراء:36 [.

5. الحذر من العجب والغرور:

داء العجب من أعظم أمراض القلوب و أشدها فتكا بصاحبه، يجعله يغتر بعمله وطاعته وهو من دواعي الهلكة كما قال النبي صلى الله عليه و سلم: (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع و إعجاب المرء بنفسه) (2). وقال صلى الله عليه و سلم: (بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل جمته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة) (3).

و متى اتصف الداعية بهذا الداء نسي نعمة الله عليه، و غفل عن افتقاره إلى الله و سد أمامه الطريق لتصحيح أخطائه و التغلب على عيوبه.

وقيل لعائشة متى يكون الرجل مسيئا؟ قالت: " إذا ظن أنه محسن " (4).

و قال مطرف بن عبد الله: " لأن أبيتَ نائما وأُصبح نادما أحب إلي من أن أبيتَ قائما وأصبح معجبا " (5).

و قال مسروق مولى عائشة: " كفى بالمرء علما أن يخشى الله وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعلمه " (6).
وما أحسن ما قاله ابن حزم عن نفسه في الأخلاق و السير: " كانت في عيوب و منها عجب شديد فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق و الحمد لله أثر بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع " (7).

(1) مدارج السالكين 1/ 378.
(2) رواه الطبراني في الأوسط 5452 ورواه البزار والبيهقي من حديث أنس, صحيح الجامع3039.
(3) رواه البخاري 5789 ومسلم 5466.
(4) إحياء علوم الدين 3/ 370.
(5) الحيلة لأبي نعيم 2/ 200.
(6) الدر المنثور للسيوطي5/ 470.
(7) الأخلاق والسير لابن حزم ص 33_34.

6. الخوف من رد العمل:
و الداعية إلى الله على خوف ووجل من أن ترد عليه أعماله، وهذا من أعظم علامات المخلصين، وقد روى الترمذي عن عائشة قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية: " ({وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}] المؤمنون:60 [- قالت عائشة رضي الله عنها - أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق لكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات) (1).
و ذكر القرطبي أنهم خائفون من ربهم ألا يرضى عنهم بسبب تقصيرهم في تحقيق شروط مرضاته، قال الحسن: (يؤتون الإخلاص و يخافون ألا يقبل منهم) (2).
و قال: (لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها) (3).
فليتذكر الداعية ذلك وهو يؤدي رسالته النبيلة، و ينشر دعوته الفضيلة.
7. الشمائل الحسان:
إنها حلة الداعية وزينته، و أول ما ينبغي أن يظهر منه عند طلعته، كيف لا وهو يدعو بدعوة النبي صلى الله عليه و سلم أحسن الناس خلقا على الإطلاق؟ و يتنسم نفحات شمائله الحسان و سجاياه الكريمة التي تنبئ عن عظمته البشرية و طيب نفسه الزكية الرضية.
و قد ظل رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو لمكارم الأخلاق و يأمر بمحاسن الشيم بل جسد ذلك عمليا في حياته مما حببه إلى النفوس و قربه إلى القلوب، و كان إضافة إلى دعوته الحكيمة وجهاده النبيل مما ألان شكيمة قومه بعد الإباء والصد عن سبيل الله حتى دخلوا في دين الله أفواجا.

(1) أخرجه الترمذي 3175 وصححه الألباني ,صحيح سنن الترمذي 3/ 80.

(2) الجامع لأحكام القرآن 12/ 132.
(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 12/ 132وصفة الصفوة لابن الجوزي 3/ 227.

قال البخاري رحمه الله - في صحيحه: (و قال أبو ذر - لما بلغه مبعث النبي صلى الله عليه و سلم - لأخيه اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق).
ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل رسم صلى الله عليه و سلم في حياته أروع مثال لحسن الخلق، و طيب النفس، فقد روى البخاري من حديث عمرو بن العاص قال: (لم يكن رسولُ الله صلى الله عليه و سلم فاحشا ولا متفحشا، وكان يقول: إن خياركم احاسنكم أخلاقا).
كيف لا وقد قال الله فيه:} وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ {[القلم:4 [؟
فنعم المطية حسن الخلق، يركبها الداعيةً ليبلغ رسالته، و يؤدي مهمته، وقد نقل ابن كثير عن محمد بن سيرين قال: " حسن الخلق عون على الدين " (1).
8. العزة:
يقول سبحانه:} وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {[يونس:65 [، ويقول:} يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ {[المنافقين:8 [.
وبقدر إحساس الداعية إلى الخير بهذه العزة و بقدر شعوره بها بقدر ما كانت همته عالية و طموحه متوقدا و سعيه متواصلا يأبى الوهن و يأنف الانكسار سائرا على درب دعوته المعطاء بنفس أبية و عزم شديد على نيل العلا.
يقول سبحانه:} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {[آل عمران:139 [، ولا شك أن التمييع و التنازل عن الثوابت و الإخلال بالمبادئ أبعد ما يكون من العزة بالله و التمسك بالدين، و ليس ذلك نهج الدعاة و لا سبيل أصحاب المبادئ. ومتى كان الداعية كذلك أعرض الناس عنه ولم يعيروه أي اهتمام.
إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا

9. الوقار وحسن السمت:

_____
(1) تفسير ابن كثير.

على الداعية أن يكون حسن المظهر بهي الطالع مهتما بشكله معتنيا بهيأته يكرم شعره و يحسن ثوبه و يكثر النظافة و استعمال الطيب و يتصف بالوقار و الرزانة و يمسك عما لا يليق من الكلام، ولا يكثر الضحك و لا يبالغ في المزاح و يبتعد عن التكلف و التشدق بالكلام، و تعتيم الخطاب، فإن في ذلك سبيلا لتقبل دعوته و داعيا لنيل الإجلال و المهابة، مما يزيده تقديرا و ثقة عند الناس و هدي النبي صلى الله عليه و سلم في مظهره الشكلي أكبر شاهد على ذلك و فيه أسوة حسنة.
وروى مسلم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (لا

يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال يا رسول الله: إني أحب أن يكون ثوبي حسنا و نعلي حسنة أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق و غمط الناس) (1).
وقد وقع التفريط في هذا الجانب من قبل كثير من الدعاة فلم يهتموا بزي السنة الجميل، ولا بمظهرها النبيل، بينما أفرط آخرون حتى خرجوا عن المظاهر الشكلية السنية و خالفوها إلى التشبه بالكافرين بدعوى الحضارة و مواكبة العصر و تغير معايير الجمال.
10. الرحمة:
و الداعية إلى الخير رحيم بطبعه مادام يدعو إلى الخير ميال إلى الرقة و الشفقة و العطف لا سيما و الإسلام دين الرحمة، و شريعته قائمة على اليُسْر ورفع الحرج و عدم تكليف مالا يطاق و قد قال سبحانه:} وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ {[الأنبياء:107]و قال سبحانه:} بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ {[التوبة:128]و قال عن نفسه: (إنما أنا رحمة مهداة) (2)، وقال عن بعثته: (إنما بعثت رحمة) (3) و قال عن نبوته إنه: (نبي الرحمة) (4)، فكان أرحم الناس بالناس يدعوهم إلى الخير و ينقذهم من الشر و الهلاك.
قال عنه مالك بن الحويرث: (كان رسول الله صلى الله عليه و سلم رحيما رفيقا) (5).

_____
(1) رواه مسلم 265 والترمذي 1999
(2) رواه الحاكم وصححه و الذهبي.
(3) رواه مسلم 2599.
(4) رواه مسلم 2355.
(5) رواه البخاري 628.

و قالت أميمة رضي الله عنها: (بايعت رسول الله صلى الله عليه و سلم في نسوة فقال لنا (فيما استطعتُنَّ وأطقتُنَّ) قلت (الله و رسولُه أرحم بنا من أنفسنا)) (1).
وهكذا بلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم في الرحمة أسمى المراتب وأعلى الغايات فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فزجره الناس فنهاهم النبي صلى الله عليه و سلم وأمر بذنوب من ماء فأهريق عليه) (2).
فأثمر هذا الخلق العظيم تفاني الناس في محبته صلى الله عليه و سلم و تسابقهم و تنافسهم في طاعته، فسهل الله به توجيه ذلك الركب الميمون و يسر به قيادة ذلك الجيل المبارك.
11. الرفق:
وهو من أعظم ثمار حسن الخلق و أجل دواعي الرحمة، وهو رأس الحكمة و زينة العمل و عنوان الفقه.
و قد تحلى رسول الله صلى الله عليه و سلم به، فكان ألطف الناس، و أكثرهم عفوا و أناة، و قد شهد له بذلك كل من لَقِيه و صاحبَه، كما فعل مالك بن الحويرث حين أتاه هو و شببة متقاربون و مكثوا عنده عشرين ي
اللعنة. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا عائشة إن الله يحب الرفق في

الأمر كله. فقلت: يا رسول الله أَوَلَمْ تسمعْ ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: قد قلت وعليكم) (3).
وروت عنه عائشة أنه صلى الله عليه و سلم قال: (يا عائشة ارفقي فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه و ما نزع من شيء إلا شانه) (4).
و في الرفق خير كبير و عون على الدعوة بالأخذ جدير، لا يفرط فيه إلا من حُرِمَ الخير ففي صحيح مسلم و سنن أي داوود و اللفظ له أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (من يحرم الرفق يحرم الخير كله) (5).

(1) رواه الترمذي 1597 وقال حسن صحيح.
(2) رواه البخاري في الوضوء 221.
(3) البخاري 6024.
(4) رواه مسلم 2594.
(5) مسلم 2592 أبو داود 4809 ابن ماجه3687.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (من أُعطِي حظَّه من الرفق فقد أُعطي حظَّه من خير الدنيا و الآخرة، و صلة الرحم، وحسن الخلق و حسن الجوار، يعمران الديار و يزيدان في الأعمار) (1).
وروى أحمد من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (يا عائشة ارفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق) (2).
فلا بد من الرفق لكل من يختلج في صدره الحرص الشديد على الدعوة إلى الخير و نشر الفضيلة.
12. اللين:
وهو من قطوف حسن الخلق الدانية، و ثماره اليانعة، وهو مفتاح باب التذكير و الهداية و عنوان القرب و جمع الشمل و تيسير التبليغ، و لمَّا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم متصفا به التَفَّ حوله أصحابُه و استمال قلوبَهم به.
يقول سبحانه و تعالى:} فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {[آل عمران:159 [.
وقد أمر الله به موسى و هارون عند دعوة أعتى المعرضين و الصادين عن سبيل الله فقال:} فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى {[طه:44 [.
و قد روى أحمد و الترمذي بسند حسن والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق عن مُعَيْقيب بن أبي فاطمة وأبي هريرة من طرق وبألفاظ متقاربة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (حرمت النار على اللين الهين السهل القريب).
و ما أحوج الدعوة إلى هذا الخلق العظيم مع الذين يريدون الاستماع ويقبلون النصح و الإرشاد، فيلين الداعية في الكلام وينتقي من أطايبه ما يستميل القلوب و يسبي الأنفس لرقة أسلوبه، و سلاسة ألفاظه، ووضوح معناه، و حسن إلقائه، و يلين في فعله و حاله فيظهر

(1) رواه أحمد وأبو يعلى في مسنديهما وإسناده صحيح , السلسلة الصحيحة

.519
(2) صحيح الجامع 303

منه حسنُ السمت، و طلاقة الوجه، و انشراح الصَّدر، و البعدُ عن التجهم، و الوجهِ العبوس، مع مراعاة الخواطر، و مواساة النفوس، و التحلي بالطمأنينة و التؤدة و السكينة و الوقار.
13. التواضع:
وهو سيدُ الأخلاق، و حلَّةُ العارفين، يرفع الله أهله، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) (1).
و قد بلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم في التواضع مبلغا لا يطاوله فيه أحد من الخَلق.
فعن عمرة قالت قيل لعائشة: ماذا كان رسول الله يفعل في بيته؟ قالت: كان بشرا من البشر يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه (2).، وكان يخدم من خدمه (3)، و يجيب من دعاه (4)، و يخصف نعله (5)، ويعمل بيده كما يعمل أحدهم في بيته، فعن الأسود بن يزيد قال قلت لعائشة أي شيئ كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يصنع إذا دخل بيته؟ قالت كان يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام فصلى (6).
و يسلم على الصبيان (7)، ويُداعبهم (8)، ويجلس مع أصحابه كأحدهم، ولا يُحِبُّ أن يُرى متميزا عليهم (9)، ولا يأنف المشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما الحاجة (10)، بل تأخذ الأَمَة بيده فتنطلق به ليقضي لها حاجتها، و يأكل كما يأكل العبد، و يجلس كما يجلس العبد (11).

_____
(1) مسلم 2588.
(2) الترمذي في الشمائل 293
(3) الترمذي 2489
(4) الطبراني 3/ 164 /1
(5) أبو الشيخ ص128 ,السلسلة الصحيحة 2130.
(6) رواه الترمذي 2489 وقال هذا حديث حسن صحيح. والبخاري في الأدب المفرد 538.
(7) البخاري 6247 ومسلم 2168
(8) مسلم 5622 والترمذي في السنن 1989 والشمائل 201
(9) البخاري 63
(10) رواه الدارمي 35 عن عبد ابن أبي أوفى.
(11) رواه أبو يعلى وقال الهيثمي إسناده حسن ,السلسلة الصحيحة 544.

و بالجملة كان أشد الناس تواضعا ممتثلا أمر ربه سبحانه:} وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {] الشعراء:215 [، فكسب بذلك القلوب و نال محبتها، فما أحوج الداعية إلى الخير إليه لكسب ود الناس و الحصول على ثقتهم حتى يتَيسَّر له العمل في جو مفعم بالقبول و الرضى.
14. الحكمة والتيسير:

ولا بد للداعية من العمل بالحكمة في دعوته و اللطف في بيانه و الحنان والرفق عند تحذيره من المخالفات و التوازن و الاعتدال في طرحه.
يقول سبحانه:} ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ {[النحل:125].
فيزن الأمور بأعدل الموازين، و يأخذ بالأولويات، و يقدم الأهم قبل المهم، و يضع كل شيء موضعه، و يكره الإفراط و التفريط، فإن ذلك يُيسِّر مهمته و ينشر دعوته.
و قد كان صلى الله عليه و سلم إذا بعث أحدا على سرية قال له: (بشروا ولاتنفروا ويسروا ولا تعسروا) (1).
وروى البخاري أنه صلى الله عليه و سلم قال: (إن الدين يسر و لن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا و قاربوا و أبشروا و استعينوا بالغدوة والروحة و شيءمن الدلجة) (2).
وقال صلى الله عليه و سلم: (القصد القصد تبلغوا) (3).
و قالت عائشة: (ما خير رسول الله صلى الله عليه و سلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ...) (4).
و قد قال سبحانه:} يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ {[البقرة:185 [، و يقول:} وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ {[الحج:78].

(1) رواه مسلم 4525 وأبو داود 4835 و غيرهما من حديث أبي موسى.
(2) البخاري 39 - 5673 - 6473.
(3) رواه البخاري 6463.
(4) رواه البخاري ومسلم.

فالشدة والغلظة و الفظاظة مما يسد الطريق دون الوصول إلى القلوب، و يقطع السبيل دون مخالطة العقول إذا وضعت في غير موضعها لما تحمله من التنفير، و الحكمةُ وضعُ الشَّيءِ في محلِّه.
15. القوة و الجد:
وهذا يُكسب الداعية احتراما وتقديرا فينزله الناس منزلة بحيث يستمعون منه و يقبلون، و الله سبحانه يقول:} خُذُوا مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {[البقرة:63].
و يقول سبحانه:} يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا {[مريم:12 [، فلا مجال للضعف والتمييع وغير ذلك مما يورث سخرية الناس و عدم مبالاتهم بل عليه أن يقول الحق و يقف معه بقوة و لا يتجاوزه إلى غيره.
وقال صلى الله عليه و سلم: (المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف و في كل خير) (1).
فلْيحرص الداعية على قوة الشخصية، ووضاءة البرهان، ووضوح الرؤية، و دقة المعلومات، مما يورثه ثقة و طمأنينة تجعله ذا عزة و هيبة تنشرح لها الصدور، و تَرقُّ لها الأفئدة، لا سيما إذا خالطتها طلاقة وجه و طيب مقال و إذا وقع منه التودد و الملاطفة، و المزاح أحيانا و المداعبة للترويح عن النفس و

إدخال السرور على الخلان، فلا ينبغي أن يتخذ ذلك منهجا لأن سبيل الدعوة أنبل و أعظم من أن يجعل ساحة للضحك و اللعب، و كذلك الداعية أجل من أن يقضي وقته في مضمار ترفيهي بحت فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (... و لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) (2).

16. الغضب لله و عدم انتظار محمدة الناس:

و الداعية إلى الخير لابد له من إيمان قوي و تمسك بالحق شديد، يورثه الغضب لله عندما تنتهك حرماته و الانتقام له عندما تدنس شعائره، فلا يركن إلى اللين و الشفقة و الاستكانة وهو يرى تطاولا على حدود الله و تمرُّدا على أحكامه و لا تجعله الرغبة في نيل رضي الناس و اكتساب محامدهم يقر على منكراتهم و يرضخ لباطلهم.

_____

(1) رواه مسلم.

(2) حديث صحيح رواه أحمد و الترمذي و الخرائطي ورواه ابن ماجه 4194 - 4217 ,السلسلة الصحيحة 506.

و قد جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قال: (ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه و سلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله عز وجل).

وعندما يرشد الداعية الناس و يبين لهم سبيل الخير لا ينبغي أن يرى له على أحد فضلا ولا جزاءً يستحقه مقتديا، بأنبياء الله الذين رفعوا شعارا قوله تعالى:} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {] الشعراء:109 [. و قال سبحانه:} إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا {] الإنسان:9 [.

قال ابن كثير رحمه الله: " أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس و قال مجاهد و سعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم و لكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب " (1).

و هكذا الداعية يؤدي وظيفته بكل إخلاص و لا ينتظر محمدة الناس و قد نقلت عن السلف في ذلك آثار كأحسن ما تكون.

17. الزهد فيما عند الناس:

و لا بد للداعية إلى الخير من التعلق الشديد بربه و الرضى بمقدوره و الإعراض عن كل ما لا ينفع في الآخرة، فيزهد فيما عند الناس فإن ذلك أدعى لقبولهم و ثقتهم فيه.

و قد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلا يملأ به بطنه كما في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رصي الله عنه (2).

فقد كان أزهد الناس في الدنيا و فيه لكل مسلم أسوة حسنة.

قالت عائشة: (ما شبع رسول الله صلى الله عليه و سلم ثلاثة أيام تباعا من خبز بُرّ حتى مضى لسبيله) (3)، و في رواية عند البخاري: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه و سلم من خبز بُرٍّ مأدوم ثلاثا) (4).

_____

(1) تفسير ابن كثير 4/ 2963 الطبعة السادسة 2004 دار السلام للنشر والتوزيع الرياض.
(2) (9 مسلم 2978
(3) رواه مسلم 2970.
(4) البخاري 5438.

فالداعية إلى الله لا يطمع في أموال الناس و لا يقف عند أبوابهم، بل يقنع بما آتاه الله و يعرض عن زخرف الدنيا و متاعها و لا يغتر بها، لأن عاقبة ذلك ذل وهوان و لو كانت الدنيا دار رضى و سعادة لاختارها الله لصفوة خلقه.
و قد روى أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال في الدنيا: (دار من لا دار له و مال من لا مال له و لها يجمع من لا عقل له) (1).
18. الصبر:
من يحمل هموم أمَّة ويَسْعَى لتبليغ رسالة على هذا القدر من العَظَمَة لا بُدَّ له من التَّحَلِّي بالصَّبْرِ كما كان رسولُ الله صلى الله عليه و سلم مع تعدِّدِ و ظائفه.
فهو القائد والمرشد والمُرَبِّي على الخير لكنَّهُ يأبى إلا تحمُّلَ المشاق و الصَّبْرَ على نكبات الطريق في سبيل إقامة دعوته، وتبليغ رسالته، والله سبحانه يقول:} فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ {] الأحقاف:35 [.
و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم كما روى مسلم: (من يَصبرْ يُصَبِّرْهُ الله و ما أُعطي أحد عطاءً خيرا و أوسع من الصبر) (2).
وقال عُمَرُ (وجدنا خير عيشنا بالصبر) (3) فالداعية يتيمَّمُ الصبر لينال معية الله و ليُوفَّى أجره بغير حساب فسبيل الدعوة مليء بالصعاب و المصائب و الأذى و النكبات.
يقول سبحانه:} وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ {] إبراهيم:12 [.
وهذا الصبر يتأكد في هذا الزمان الذي ظهر فيه الشر و انتشرت الفتن.

(1) أخرجه أحمد في المسند24464 وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد 10/ 288 بأن رجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة, وهو في الزهد لأحمد ص 200 وشعب الإيمان للبيهقي 10673 عن ابن مسعود موقوفا وفيه انقطاع, وأنكر الحديث أحمد كما في المنتخب من العلل ص44.
(2) مسلم 1053.
(3) رواه البخاري معلقا ص 1122.

و قد روى البخاري من طريق الزبير بن عدي: (قال أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم محمد صلى الله عليه و سلم) (1).
فالداعية يجعل من تمسكه بالحق و صبره عليه نورا يهتدي به، فيتحمل المشقة و العناء و يبتعد عن التسخط و الجزع والشكوى، و لا يقابل الناس بكآبة وجه، وعبوس جبين فإن ذلك ينافي الصبر الجميل.
و لْيخالط الناس و لْيصبر على أذاهم فقد قال صلى الله عليه و سلم: (المؤمن

الذي يخالط الناس و يصبر على أذاهم أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس و لا يصبر على أذاهم) (2).

19. حسن التعامل مع المخطئين:

لا ينبغي للداعية أن يزدري بالمخطئين أو يعنفهم عند الإنكار عليهم بل عليه أن يدعوهم إلى التوبة و يُذكرَهم بفضلها و يبين لهم محاسنها بأحسن الألفاظ و أطيب العبارات و ألطف معاملة، و يعلمهم أن الوقوع في الخطيئة من مقتضيات البشرية كما قال صلى الله عليه و سلم (كل بني آدم خطاء و خير الخطائين التوابون) (3) وأنه عسى الله أن يبدل سيئاتهم حسنات كما في قوله سبحانه:} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا {] الفرقان:70 [.

فعليه أن يُرغبَه في الخيرات و يَدُلَّه على مكفرات الذنوب، و يُذَكِّرَه برحمة الله الواسعة و أبواب الفرج الكثيرة مبتعدا عن كل ما من شأنه أن يزهد في التوبة و يجعله يرى سبيل الفرج مسدودا أمامه.

وقد روى البخاري و غيره من طرق كثيرة أن رجلا أصاب من امرأة قُبلة فأتى النبي صلى الله عليه و سلم و ذكر له ذلك، فنزل قوله تعالى:} وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ {] هود:114 [.

---

(1) البخاري 7068.

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد 388 وسنده صحيح وابن ماجه 4032 وفي سنده عبد الواحد بن صالح وهو مجهول وعنده (أعظم أجرا) بدل (خير) والترمذي 2507عن شيخ من أصحاب النبي ص, قال أبو عيسى: قال ابن عدي كان شعبة يرى أنه ابن عمر, وحسنه الحافظ في البلوغ 1449.

(3) رواه الترمذي وابن ماجه وذكره الحافظ في البلوغ 1478قال وسنده قوي.

و قد ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة في هذا المعنى.

و ذكر ابن القيم في كتابه " طريق الهجرتين و باب السعادتين " أكثر من ثلاثين حكمة في تخلية الله العبد بينه وبين الذنب ينبغي أن يذكر بها الداعية نفسه التي لا تخلو من عيوب كما يذكر بها المخطئين، منها:

· أنه يحب التوابين و يفرح بتوبتهم فلمحبته للتوبة و فرحه بها قضى على عبده بالذنب ثم إن كان ممن سبقت له العناية قضى له التوبة.

· تعريفه بحقيقة نفسه و أنها الخطاءة الجاهلة و أن كل ما فيها من علم أو عمل أو خير فمن الله مَنَّ به عليه لا من نفسه.

· أن يعامل عباده في إساءتهم إليه و زلاتهم معه بما يجب أن يُعامله الله به فإن الجزاء من جنس العمل فيعمل في ذنوب الخلق معه ما يجب أن يصنعه الله بذنوبه.

· أن يُقيم معاذير الخلائق و تتسع رحمته لهم مع إقامة أمر الله فيهم فيقيم أمر الله فيهم رحمة لهم لا قسوة و لا فظاظة عليهم.

· أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس و الفكر فيها فإنه في شغل بعيبه و نفسه و طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس (1) وويل لمن نسي عيبه

وتفرغ لعيوب الناس فالأول علامة السعادة و الثاني علامة الشقاوة.
فبدلا من توبيخ المذنب و جعل ذنبه وصما و عارا، على الداعية أن يذكره بما يمكن أن يجلبه الذنب بعد التوبة من خير و يبين له مكانة التوابين عند الله و ما أعده للمستغفرين من حسن الثواب.
فهذه جملة من الأخلاق لابد للداعية من التخلق بها للابتعاد عن طرفي الإفراط و التفريط.

_____
(1) رواه البزار وحسنه الحافظ في نلوغ المرام 1511.

ضرورة الدعوة

1. الدعوة سبيل الإصلاح
2. حكم الدعوة وفضلها
3. وسائل الدعوة
4. سبيل نجاح الدعوة

ضرورة الدعوة:

إن المجتمع الشنقيطي لم يَعُد كما كان نظرا لنوع الانفتاح الذي يشهده في عالَم المواصلات والثورة الإعلامية التي مهدت لغزو ثقافي وفكري كبير وجد فيه الجهلة ضالتهم ناهيك عن الخلل الكبير للمناهج الفكرية والثقافية المتأثرة بالعالم من حولها، والتي من وراء انتشارها أعداء الدين، فضلا عن البيئة المظلمة التي انتشرت فيها مساوئ الأخلاق، بل أصبحت عند البعض شعارا يرفع وسبيلا يتبع، بسبب التفريط في القيام بالدعوة إلى الخير والإفراط في الأخذ بالوسائل التي أخرجت الدعوة من طورها إلى الإقرار على المخالفات

،كالْتِماس البعض الدعوة عن طريق المشاركة في الديمقراطية والإقرار على إفرازاتها، وفي ذلك ما فيه من الخروج الظاهر عن المشروع.
وأي الأسلاف كان يتصور وجود الانحراف العقدي في أبناء المجتمع ناهيك عن ترك الصلاة، وجهل أحكامها و اتباع سنن أعداء الدين والرضي بالتشبه بهم فضلا عن تبرج النساء واختلاطهن بالرجال دون حياء بل وخروجهن لوحدهن إلى بلاد النصارى .. هذا مع انتشار الرذيلة وغياب المروءة والفضيلة في أغلب الأحيان بل أصبح الوازع الديني ضعيفا في المجتمع ككل، للابتعاد عن شريعة الله وجهل أحكامها.
وخير مثال على ذلك ما يقع أثناء الحملات الانتخابية، وكأنه قد أفل نجم الهداية وأسدل ظلام الجهل رواقه، فكان واجبا على الدعاة إحياء الجذوة الدينية في النفوس واستنهاض همة المجتمع على التمسك بالدين ونشر المنهج القويم الذي لا يرضى الحذاق غيره في العبادة والحكم والمعاملات والأخلاق والقيم.

1. الدعوة سبيل الإصلاح:

إنه لا بد من السعي للإصلاح وذلك بالدعوة إلى الخير ونشره ولا ينبغي أن يكتفي الإنسان بصلاحه في نفسه غير مهتم بإصلاح المجتمع وغير عامل بجد لتحقيق

ذلك.
فقد جاء في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل عليها فزعا يقول: (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا. قالت أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث) (1).
وقد ذكر سبحانه مكانة الإصلاح وفضله وخيره في الدنيا فقال سبحانه:} فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ {] هود:116 - 117 [، كما ذكر الله أجر المصلحين في الآخرة فقال:} وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ {] الأعراف: 170 [.
فيجب على كل مسلم الحرص على نشر الخير والتشمير عن سواعد الجد لإصلاح المجتمع وبنائه على أساس من الإيمان والتقوى وأحسن من قال.

_____
(1) رواه البخاري 3346 ومسلم 7235 والترمذي 2187 وابن ماجه3953.

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد ...
فإن تجمع أوتاد وأعمدة ... وساكن بلغ الأمر الذي كادوا ...
لا يصلح الناس فوضى لا سراة ... لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا ...
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولوا فبالأشرار تنقاد

وإذا لم يدْعُ أهلُ الخير إليه وجد الشَّر سبيلا إلى الظهور والانتشار على أيدي المفسدين الذين يجب التصدي لهم وإبطال مآربهم بنشر الحق لا بالسكوت، وأحسن القائل:
عجبت لإزراء الغبي بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالقول أعلما ...
وفي الصمت ستر للغبي ... وإنما صفيحة لُبّ المرء أن يتكلما

وقد كان النبي صلى الله عليه و سلم حريصا على إنقاذ البشرية من عذاب الدنيا والآخرة، وإذا لم يكن الداعية متحليا بهدي النبي صلى الله عليه و سلم، داعيا إلى اتباعه ساعيا لنشر دينه فإنه سيتفلت المجتمع إلى الوقوع في الشر الذي يهدى إلى النار.
وقد روى مسلم من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب و الفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار و أنتم تفلتون من يدي) (1).

2. حكم الدعوة و فضلها:

والدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم فقد قال سبحانه:} قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {] يوسف: 108 [، ويقول سبحانه:} وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {] آل عمران: 104 [.

فمن العلماء من قال إن "مِنْ" في قوله (مِنكُم) للبيان لا للتبعيض، فهذه الأمة كلها داعية إلى الخير، كما أن كل فرد منهما مأمور بإتباع النبي صلى الله عليه و سلم.

_____

(1) مسلم 5955 الترمذي 2874.

ومع أن الدعوة فرض قائم وحق واجب ودعيمة لا غنى عنها لبناء المجتمع، إلا أنها تُثمر مع ذلك فوائد جليلة تجعل المجتمع لا يتوانى عن إقامتها فيه ونشرها بين بنيه، فتنعم البلاد و يتروض الناس في رياض الفضيلة الممرعة، وينهلون من ينبوع التقى ويتعاطون كؤوس المودة صافية في ظلال الإيمان الوارفة.
يقول سبحانه:} وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ {] المائدة: 66 [.
ويقول سبحانه:} وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}] الأعراف: 96 [. ويقول أيضا:} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {] الأنفال: 24 [.
فبالدعوة إلى الله و بالاستجابة لها يَحيَى مواتُ القلوب وتحيى الأرض بعد موتها، وينال الداعية خير الدنيا والآخرة، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدي في قصة علي يوم خيبر لما أعطاه النبي صلى الله عليه و سلم الراية قال: (أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال رسول لله صلى الله عليه و سلم: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم).
والدعوة إلى الخير لا تختص بالأفراد بل هي آكد في حق الجماعة الحاكمة، يقول سبحانه و تعالى:} الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {] الحج: 41 [.
فإذا لم تكن الجماعة الحاكمة ساعية في نشر الدعوة وعونا للدعاة فلا أقل من أن تتركهم يؤدون مهمتهم فلا تضايقهم ولا تشد الخناق عليهم.

3. وسائل الدعوة:

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر:
وهو عماد الدعوة، وركنها الركين، يقول سبحانه:} وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {] المائدة: 66 [.

ويقول أيضا:} كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ {] آل عمران: 110 [.
ويقول أيضا:} لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا

كَانُوا يَفْعَلُونَ {] المائدة: 78 [.
ويقول أيضا:} وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {] التوبة: 71 [.
وعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (1).
وإذا لم يؤمر بالمعروف وينكر المنكر فإنه سيقع فساد كبير، ويعم العذاب، فعن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، وقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا) (2).
وروى الترمذي وغيره من حديث حذيفة أن النبي صلى الله عليه و سلم: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) (3).
فالإقرار على المنكر إثم عظيم وخطر جسيم لا سيما إذا وقع من حاكم معتبر فضلا عن غيره، فعن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون

---

(1) رواه مسلم 177 أبو داود1140 الترمذي 2172 النسائي 5023 ابن ماجه 1275.
(2) رواه البخاري 2173 والترمذي 2493.
(3) رواه الترمذي 2169 وحسنه.

وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع. قالوا يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة) (1).
ومع ذلك فالشوارع تغص بالمنكرات، بل تدنس الحرمات وتنتهك الشعائر وتزداد مساوئ الأخلاق، وقَلَّ المنكرون حتى خِيفَ مِن جعْل المنكر معروفا، بسبب التفريط حتى في حق الطريق.
وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد: (أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله مالنا من مجالسنا بُدٌّ، نتحدث فيها. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فإذا أبيتم إلى المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (2).
قول الحق:
ذلك لأنه بدون الصدع بالحق تضيع الحقوق، ويختلط الحق بالباطل و الحابل بالنابل، ويخيم الظلم، وقد قال سبحانه:} وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا {] الكهف: 29 [.

وقد بايع أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم النبي على قول الحق، ففي صحيح البخاري من حديث عبادة بن الصامت قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه و سلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى ألاّ ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم) (3).
فالداعية إلى الله يصدع بالحق لا يخشى غير الله، وبذلك يضمن بناء المجتمع، وديمومة قيامه على الخير، ذلك لأن الحق باقٍ وثمرتُه دائمة، يقول سبحانه:{ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ {] الرعد: 17 [.

_____

(1) رواه مسلم 4800 وأبو داود 4760 - 4761 والترمذي 2265.
(2) البخاري 2465 مسلم 5563 أبو داود 4815.
(3) رواه البخاري 7200 ومسلم 4769 والنسائي 4161 وابن ماجه 2866.

النصيحة:
وهي أمر لابد منه لبناء المجتمع وصفاء حياة أهله، وقد أرسل الله الأنبياء ناصحين لأممهم يقول سبحانه عن نوح:{ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {] الأعراف: 62 [. ويقول عن هود:{ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ {] الأعراف: 68 [. وقال عن صالح:{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ {] الأعراف: 79 [.
وعن تميم بن أوس الداري أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم) (1).
و أيضا في الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه و سلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) (2).
وكم من منغمس في المخالفات يمر عليه الناس غُدُوًّا وعشيا وما من ناصح؟ بل إن منهم من لو نصحه لقبل نصحه، لثقته فيه، أو خلته له، أو قربه منه، فيالمضرة التفريط!.
الدلالة على الخير:
وهو أمر لا يعجز عنه إلا محروم ولا يفرط فيه حاذق، وقد استنهض النبي صلى الله عليه و سلم الهمم للقيام به، وحرض النفوس عليه، فقد روى مسلم من حديث أبي مسعود أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) (3).
وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا) (4).
فما أيسر أن يدعو الشخص صديقه لحضور الصلاة أو درس في المسجد أو يهدي إليه شريطا مفيدا، أو يدله على عالِم يرشده أو كتاب يستفيد منه، أو ينبهه على بذل المعروف، وغير ذلك، ولكن التفريط حال دون ذلك.

_____

(1) رواه مسلم 196 وأبو داود 4944 والنسائي 4208.
(2) البخاري 57 - 524 مسلم 200 - 201 الترمذي 1925 الطيالسي660.
(3) مسلم 4899 أبو داود 5129 الترمذي 2671.
(4) مسلم 6804 أبو داود 4609 الترمذي2674.

تبليغ ونشر السنن:
والنصوص زاخرة بالحث على تبليغ الدين ونشر سنة خير المرسلين صلى الله عليه و سلم يقول سبحانه:} الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا {] الأحزاب: 39 [.
ويقول أيضا:} وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ {] فصلت: 33 [. ومن اتبع النبي صلى الله عليه و سلم دعا بدعوته واتبع هديه في التبليغ عنه. وقد قال صلى الله عليه و سلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص (بلغوا عني ولو آية) (1).
وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه و سلم قال في خطبته في حجة الوداع: (فليبلغ الشاهد الغائب) (2).
وفي الصحيحين أيضا من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) (3). فيكفي هذا الثناء حضا على حفظ العلم ونشره بين الناس لينتفعوا به.
بل دعا له النبي صلى الله عليه و سلم بنضارة الوجه فقال: (نضر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) (4). و قال أيضا صلى الله عليه و سلم: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده

_____
(1) البخاري 3461 ,الترمذي 2669.
(2) رواه البخاري 104 - 1832 ومسلم 3304 والترمذي 809 - 1406 والنسائي 2876 عن أبي شريح العدوي ,ورواه البخاري 67 عن أبي بكرة وابن ماجه 234 عن معاوية القشيري-235 عن ابن عمر.
(3) البخاري 79 ومسلم 5953.
(4) رواه أبو داود 3660 والترمذي 2656 عن زيد بن ثابت وحسنه, وابن ماجه عن جبير بن مطعم 231 واللفظ له وأنس بن مالك 236, ورواه الترمذي عن ابن مسعود وصححه, والبزار عن أبي سعيد بإسناد حسن كما في صحيح الترغيب والترهيب الحديث 4 و89.

من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) (1).

فكم من أفراد المجتمع يحفظون القرآن وما علَّموه؟ ويعرفون السنة وما نشروها بسبب التقصير والتفريط؟.

كتمان العلم:

وهو من أعظم الذنوب وجاء فيه من الوعيد الشديد ما هو معلوم من قوله تعالى:} إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ {] البقرة: 159 [.

قال الشوكاني في "فتح القدير ": " اختلفوا في المراد بذلك فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين تركوا أمر محمد صلى الله عليه و سلم، وقيل كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه وهو الراجح، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم، فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق، وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقدر قدره، فإن من لعنه الله ولعنه كل من يتأتى منه اللعن من عباده بلغ الشقاوة والخسران إلى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها " (2).

وقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ببيانه وعدم كتمانه، فقال سبحانه:} وَ إِذَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ {] آل عمران: 178 [.

وعن أبي هريرة قال: (من سئل عن علم علمه ثم كتمه أُلجِمَ يوم القيامة بلجام من نار) (3)، وفي رواية: (ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أتي به يوم القيامة ملجما بلجام من نار) (4).

---

(1) رواه مسلم 2351 والنسائي 2553 وابن ماجه 203.

(2) فتح القدير 1/ 238

(3) رواه أبو داود 3657 والترمذي واللفظ له 2649 وابن ماجه 261وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

(4) سنن ابن ماجه 261 وصحيح سنن ابن ماجه 210

وقد أكرم الله هذا المجتمع وأنعم عليه بكثير من العلماء والحفظة واللغويين المُجازين، ولكن من نزل إلى الساحة الدعوية فقد كثيرا منهم بسبب ما يُعانيه المجتمع من تفريط تجاه الدعوة إلى الخير.

أولويات الدعوة:

1. الدعوة إلى التوحيد:

إنها وظيفة الداعية الأولى ومهمته الأساسية، ولذلك جاء في الصحيحين في حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و سلم أرسل معاذا إلى اليمن وقال له: (إنك تأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك و كرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) (1).

ذلك لأن التوحيد أصل الدين، لا يصح باقي الأصول إلا به، ناهيك عن الفروع،

فهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الشرائع لإقامته، وهو أفضل الأعمال، والقرآن كله إما أمر به، أو نهي عن ضده، أو بيان لحقوقه، أو إقامة للآيات عليه، أو ذكر الفرق بين أهل السعادة المحققين له وبين عقاب أهل الشقاوة المعرضين عنه، أو ذكر أخبار دعاته مع أممهم، وهو أصل الإصلاح والرشاد، وبفقده يعم الشر والفساد، وهو حق الله على عبيده فلا يقدم على حق الله أي حق. وقد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لمعاذ: (هل تدري ماحق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ فقال معاذ: الله ورسوله أعلم. فقال: رسول الله صلى الله عليه و سلم: فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا) (2).
والتوحيد ينقسم إلى:

---

(1) رواه البخاري 1395 - 1458 ومسلم 121 وأبو داود 1584 والترمذي625 والنسائي 2434 وابن ماجه 1783
(2) البخاري 7378ومسلم 2804.

أ- توحيد العبادة: وهو توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بالعبادة والكفر بما يعبد من دونه.
ب- توحيد الربوبية: وهو إفراده سبحانه بأن له الملك والخلق والأمر وقد أقر بذلك الكفار، ومنه توحيده في الحكم والتشريع فهو لازم توحيد الربوبية.
ت- توحيد الأسماء والصفات: بإثبات ما أثبت لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلا دون تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل ولا تحريف، وبنفي ما نفى عنه سبحانه.
التوحيد دعوة الأنبياء:
والدعوة إلى توحيد الله في العبادة هي وظيفة الأنبياء يقول سبحانه:} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ {] الأنبياء: 25 [.
وقال سبحانه:} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {] النحل: 36 [.
فما من نبي إلا ودعا إلى التوحيد وصدع به جهارا:} أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ {] المؤمنون: 23 [.
وفي تتبع قصص الأنبياء وتأملها ما يدعوا إلى تحقيق التوحيد، وقد كانت حياة النبي صلى الله عليه و سلم كلها حافلة بالدعوة إلى التوحيد، وحقق أصحابه الكرام أسمى حقائقه ومعانيه ذلك لأنه) لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة) (1) كما في الصحيح من حديث ابن مسعود، فمدار النجاة يوم القيامة على تحقيق التوحيد.
تعلم التوحيد:
لقد علم رسول الله صلى الله عليه و سلم التوحيد، وبين حدوده بيانا واضحا حتى أدرك المشركون حقيقته التي أعرضوا عنها قال تعالى عنهم} أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ {] ص: 5 [.
وأدركوا أن نطقهم بالشهادة يعني الكفر بآلهتهم التي يعبدون من دون الله قال

سبحانه:} إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ {] الصافات: 35 - 36].

---

(1) البخاري 3062.

فمن هنا يجب على كل مسلم تعلم التوحيد ومعرفة ما تتضمنه كلمته من نفي وإثبات.
وقد قال سبحانه:} فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ {] محمد: 19 [. فما أكثر ما يأتي الخلل في التوحيد من قبل الجهل الذي هو أصل الانحراف عن ملة التوحيد إلى الشرك بالله.
والتوحيد هو الموافق للفطرة، يقول سبحانه:} وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ {] الأعراف: 172 [.
ومن تأمل قصة زيد بن عمرو بن نفيل في صحيح البخاري (1) أدرك أن التوحيد هو الأصل الموافق للفطرة بينما الشرك دخيل عليها.
وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، وفي رواية لمسلم: (ثم قرأ أبو هريرة:} فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {] الروم: 30 [.) (2).
خطر الشرك:
الشرك هو أعظم الذنوب على الإطلاق، يقول سبحانه:} إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا {] النساء: 116 [.
وقال سبحانه:} لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَاوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {] المائدة: 72 [.
و يقول سبحانه} حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ {] الحج: 31 [.

---

(1) البخاري 3826 - 3827 - 3829
(2) رواه البخاري 1359 - 4775 ومسلم 6757

ولذلك كان أهله أهل قذارة و نجاسة، قال سبحانه:} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {] التوبة: 28 [، لا تفارقهم تلك النجاسة إلا بالإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم كما في حديث أبي هريرة: (إن المؤمن لا ينجس) (1).
ولذلك بعث الله كل الأنبياء لإقامة التوحيد وتطهير الأرض من قذارة الشرك ودرن

الإلحاد، ولا يقبل الله من مشرك عملا حتى يؤمن، لقوله تعالى:} وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ {] الزمر: 65 [، فكان حريا بالدعاة أن يهتموا بالنهي عنه، و سد الذرائع دونه، وأن ينشروا الدين الخالص الذي لا يشوبه شرك، جليلا كان أو حقيرا، قليلا كان أو كثيرا.

يقول سبحانه وتعالى:} إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ {] الزمر: 2 [، ويقول سبحانه:} وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنْثُورًا {] الفرقان: 23 [.

قال ابن كثير: " لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، و ذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل " (2).

أنواع الشرك:

1. شرك العبادة: وهو صرف شيء من العبادة لغير الله، قال تعالى:} قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {] الأنعام: 162 [.

2. شرك المحبة: أن يحب شيئا كحبه لله أو أشد قال تعالى:} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ {] البقرة: 165 [.

---

(1) رواه البخاري 283_285 ومسلم 824 وأبو داود231 والترمذي 121 والنسائي 269 وابن ماجه534 وجاء من حديث حذيفة بلفظ (إن المسلم لا ينجس) مسلم 825 أبو داود 230 النسائي 268 ابن ماجه 535.

(2) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير في مجلد واحد ص961 , إشراف صفي الرحمن المباركفوري _الطبعة الثانية_دار السلام, الرياض.

3. شرك الطاعة والتشريع: وهو أن ينصب نفسه مشرعا من دون الله، أو يجعل مع الله مشرعا في العبادات أو حاكما في المعاملات. قال تعالى:} أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {] الشورى: 21 [.

4. شرك الإرادة: ويقع ممن يريد الدنيا بأعماله كلها، فمن كان لا يعمل إلا للدنيا كان بذلك مشركا، قال تعالى:} مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {] هود: 15 - 16 [. هذا هو الشرك الأكبر أما الشرك الأصغر فالرياءُ و السمعةُ و صرفُ بعض الأعمال لتحصيل الدنيا.

قال صلى الله عليه و سلم فيما يرويه عن ربه: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) (1)، و قال صلى الله عليه و سلم: (اليسير من الرياء شرك) (2)، و قال صلى الله عليه و سلم: (من سمع سمع الله به و من راءى يرائي الله به) (3).

فهذه الأنواع كلها ينبغي أن تكون ذات أولوية عند الداعية وهو ينذر الناس و

يزجرهم عن المهلكات.
التحذير من شرك و بدع القبور:
تمثل المقابر مسرحا للكثير من البدع و الشركيات في أكثر بلاد المسلمين، حيث ابتعد الزوار عن حقيقة الزيارة الشرعية التي بيَّن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و بيَّن المقصد منها أحسن بيان، فأبى كثير من الناس إلا الاستغاثة بالمقبور، و التمسح على عتبات القبور، و الذبح عندها والأخذ من ترابها .. إلى غير ذلك مما تسكب له العبرات ..

(1) رواه مسلم 7475 وابن ماجه 4202.
(2) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في الزهد له ,وقال الحاكم صحيح ولا علة له ,وضعفه الألباني في الترغيب والترهيب الحديث 20 - 1636 - 1866 عن زيد بن أسلم عن أبيه من حديث معاذ مرفوعا.
(3) مسلم 7476 وابن ماجه 4207.

وقد حذر النبي صلى الله عليه و سلم أشد التحذير من تعظيم القبور، و رفعها، و البناء عليها سدا لذريعة الشرك و الابتداع، فنهى رسول الله صلى الله عليه و سلم (أن يخصص القبر أو يبنى عليه أو يقعد عليه) (1).
و قد جاء في الصحيحين من حديث عائشة وابن عباس قالا: (لما نزل برسول الله صلى الله عليه و سلم طفق يطرح خميصة على وجهه فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا) (2).
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما مرض النبي صلى الله عليه و سلم تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية و قد كانت أم سلمة و أم حبيبة قد أتتا الحبشة، فذكرن من حسنها و تصاويرها، قالت فرفع النبي صلى الله عليه و سلم رأسه فقال: أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل بنوا على قبره مسجدا، ثم صوَّروا تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) (3).
فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في لحظاته الأخيرة يحرض على إقامة التوحيد و إيضاحه، و يحمي حماه من الشرك و البدع.
و عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في مرضه الذي لم يقم منه: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت: فلولا ذلك لأُبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا) (4).
و هكذا كان الصحابة الكرام متبعين النبي صلى الله عليه و سلم في ذلك، فقد أوصى أبو هريرة ألا يضربوا على قبره فسطاطا، رواه عبد الرزاق 3/ 418 وابن أبي شيبة 4/ 135 و ذكر البخاري أن ابن عمر رأى فسطاطا على قبر عبد الرحمن فقال: (أنزعه يا غلام فإنما يظله عمله) (5).

(1) مسلم 2245 أبو داود 3225 - 3226 الترمذي 1052 النسائي 2026 - 2027 ابن ماجه 1563 الحاكم 1/ 370 أحمد 26618 وزاد أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم (أو يكتب عليه) وإسنادها صحيح.
(2) البخاري 1330 - 1390 - 4441 مسلم 1184.
(3) البخاري 427 - 3873 مسلم 1181 النسائي 703.

(4) أخرجه البخاري في الجنائز1330 - 1390 ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة 529.
(5) ذكره البخاري معلقا في الجنائز3/ 222.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ذكر النبي صلى الله عليه و سلم ما يفيد أن القبور تعبد من دون الله فقال صلى الله عليه و سلم: (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) (1).
ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بطمس معالمها و تسويتها حتى لا تعبد، فقد روى مسلم عن أبي الهيجاج أن علي بن أبي طالب قال له: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم، ألا أدع تمثالا إلا طمسته و لا قبرا مشرفا إلا سويته) (2).
و قد نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يخصص القبر و أن يقعد عليه و أن يبنى عليه أو أن يكتب عليه (3)، ولعن المتخذين عليها السرج والمساجد (4) سدا لذريعة الشرك و الابتداع، ولكن صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم حين قال كما في حديث ثوبان: (لا تقوم الساعة حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان) (5).
فزاروا القبور لقضاء الحوائج و نيل الآمال، و اعتكفوا عندها وخشعوا وذلّوا وسكبوا العبرات و دعوا الموتى و طافوا بقبورهم و تمسحوا بها و ذبحوا عندها و حملوا ترابها إلى غير ذلك من مظاهر الشرك و الابتداع التي تميز بها القبوريون، فكان لزاما على كل داعية بذل الوسع في النهي عنها و التذكير بسوء عاقبة أهلها.
صور من الانحراف العقدي:
مع أن كثيرا من أهل المجتمع لا يثبت أن الله مستو على عرشه فوق السَّموات السبع، كما يذبح بعضهم عند القبور لغير الله و ينذر لغيره و يعلق التمائم ناهيك عن الحلف بغير الله على وجه التعظيم .. إلا أن الاستغاثة بغير الله في الشدة و الرخاء تبقى أكثر انتشارًا وأكبر

---

(1) رواه مالك 85 وأحمد 2/ 246.
(2) مسلم 2243 أبو داود 3226 - 3225 الترمذي 1052 الطيالسي 155 أحمد 1/ 96 - 124 النسائي 2026 ابن ماجه 1563.
(3) مسلم 2245 أبو داود 3226 الترمذي 1052 وقوله "أن يكتب عليه "زيادة عند أبي داود والترمذي وابن ماجه والحاكم.
(4) أبوداود 3236 والنسائي 1/ 287 والترمذي 2/ 132 وابن أبي شيبة 4/ 140 والحاكم 1/ 374 والبيهقي 4/ 78 والطيالسي 1/ 171 وأحمد 1/ 229 والطبراني في الكبير 3/ 2/174 وفي سند الحديث أبو صالح باذان, قال الحاكم لم يحتجا به, وقال الترمذي حديث حسن وأبو صالح هذا مولى أم هانئ بنت أبي طالب ,واسمه باذان ,ويقال باذام, وضعف الحديث عبد الحق الإشبيلي في أحكامه الكبرى 1/ 80.
(5) رواه أحمد وأبو داود 4252وابن ماجه.

خطرا، بل هي عند أهلها من أقرب مفاتح الفرج و موجبات رضا الله، ولا شك أنها من أظهر صور الشرك بالله، و كيف يصرف عاقل دعاءه لغير الله؟ وهو يعلم أن الله أرحم به و أسرع استجابة و أعلم بحاله و أقدر على إجابة سؤاله وأقرب يقول سبحانه:} وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ {] البقرة:186 [.
و يقول سبحانه:} وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ {] يونس:106 [.
و يقول سبحانه:} وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ {] الأحقاف:5 [.
والآيات في التحذير من شرك العبادة كثيرة جدا، وفيها زواجر عظيمة وتقريع و توبيخ شديد للمتلبسين به لا سيما إذا كانوا أسوأ حالا من أهل الجاهلية الذين إذا كانوا في الشدة دعوا الله مخلصين له الدين.
وقد جعل الله الدعاء عبادة فقال:} وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ {] غافر:60 [. وروى اهل السنن من حديث عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه و سلم قال: (الدعاء عبادة)، ويقول سبحانه:} أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ {] النمل:62 [.
وقال:} قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ {] الإخلاص:1 - 2 [. أي الذي يصمد له في الحاجات ويتوجه إليه، فهذا هو أصل التوحيد الأصيل، وماذا يرجوا العبد من الله إذا كان يدعو غيره لكشف الضر ويلجأ إليه لنيل الحاجات؟
ويقول سبحانه:} قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ {] يونس:31 [.

و ذكر ابن جرير في تفسيره عن قتادة رحمه الله قال: (إنك لست تلقى أحدا منهم إلا أنبأك أن الله ربه هو الذي خلقه ورزقه و هو مشرك في عبادته) (1).
فلا بد من تعليم الناس أن مجرد الإقرار بربوبية الله لا يتحقق به التوحيد حتى تصرف العبادة كلها لله وحده.
الانتساب للإسلام:
يحكم لمن انتسب للإسلام به ما لم ينتقض إسلامه، أما القول إنه يبقى مسلما مادام ينتسب إليه و لو صرف العبادة الظاهرة لغير الله فمحض إرجاء، فمن كان يعتكف عند القبر و يستغيث بالمقبور بتضرع وخشوع يسأله النصر والرزق وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وقضاء الحاجات، ويسكب العبرات ويتمسح بالعتبات ويقبلها و يعفر خده بترابها فلا يحمل من الإسلام غير الإسم. يقول الصنعاني في " تطهير الإعتقاد من أدران الإلحاد ": " و النذر بالمال على الميت و نحوه والنحر على القبر و التوسل به و طلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية و إنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا و صنما، و فعله القبوريون لما يسمونه وليا و قبرا ومشهدا و الأسماء لا أثر لها و لا تغير المعاني ضرورة لغوية و عقلية و شرعية، فإن من شرب الخمر و سماها ماء ما شرب إلا خمرا " (2).

ويقول الشوكاني في كتابه " شرح الصدور بتحريم رفع القبور ": " ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمى بصاحبه وراء حائط الإسلام و يلقيه على أم رأسه من أعلى مكان الدين أن كثيرا منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام و أجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر متقربا به إليه، راجيا ما يضمن حصوله له منه، فيهل به لغير الله، و يتعبد به لوثن من الأوثان، إذ أنه لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يُسمُّونها وثنا، و بين قبر لميت يُسمُّونه قبرا، و مجرد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئا " (3).
فكون المرء منتسبا للإسلام لا يُغْنِي عنه شيئا مالم يحقق التوحيد و كونه يَعبُد غيرَ الله و لا يُسميه وثنا لا يغني عنه شيئا هو الآخر.
خطر التكفير:

_____
(1) تفسير ابن جرير15/ 96.
(2) تطهير الإعتقاد ص 18 - 19
(3) شرح الصدور ص 20.

يقول العلامة الشوكاني في "السيل الجرار " فصل الردة: " اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، و دخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه لا ببرهان أوضح من الشمس النهار، لأنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما هكذا في الصحيح (1) وفي لفظ آخر في الصحيحين (2) وغيرهما. من دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه، أي رجع. وفي لفظ في الصحيح: (فقد كفر أحدهما)، ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير " (3).
وقد تساهل كثير من الناس في هذا الجانب فلم يعيروا نواقض الإيمان الاهتمام اللائق، والله سبحانه يقول:} وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ {] الزمر:65 [.
وسلك آخرون مسلك الغلو فلم يَقِفوا عند شروط التكفير وموانعه.
وقد قال صلى الله عليه و سلم: (إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين) (4).
إجراء الحكم على من يستحقه:
وهذه المسألة ينبغي أن تكون حاسمة وواضحة عند الدعاة وإن لم يدركها الجماهير، ذلك لما يترتب عليها من ولاء و براء و مودة وعداء وأحكام كثيرة.
وقد وجدت هذه المسألة كثيرا من التمييع الراجع إلى الإخلال بضوابط إجراء الحكم، والتوسع في موانعه، خصوصا ممَّن يدَّعون البراءة من الإرجاء، وفي المقابل وجدَتْ شيئا من الغلو ممن أخذوا بالمطلقات، ولم يقيدوها بقيودها وموانع التكفير هي الإكراه والخطأ وانتفاء القصد والتأويل السائغ والجهل المعتبر (5).

_____
(1) البخاري 10/ 514
(2) البخاري 6045 ومسلم 61

(3) السيل الجرار في مجلد واحد ص 978.
(4) رواه النسائي و ابن ماجه 3029 من حديث ابن عباس , صحيح ابن ماجه 2455.
(5) راجع إتحاف البررة بموانع التكفير المعتبرة، ص 40 فما بعدها.

وقد أخطأ قوم عذروا بالجهل و ادِّعاء التأويل والخطأ في الاجتهاد مطلقا، وأخطأ آخرون فلم يعذروهم مطلقا، و الصَّوابُ التفصيل كما أخطأ الذين يُطلقون الحكم قبل قيام الحجة مطلقا والذين لا يطلقونه قبل إقامتها مطلقا، والصواب أيضا التفصيل، فأصل الدين والأمور الظاهرة لا يتوقف الحكم فيها على إقامة الحجة، بخلاف الأمور الخفية، وهذا واضح لمن تأمل وأدرك الفرق بين الاسم والحكم وعلاقتهما قبل وبعد قيام الحجة، وعلم أن ثمة كفرا يعذب عليه بسبب قيام الحجة و كفرا لا يعذب عليه لغياب الحجة الرسالية.
فمن وقع منه الشرك في أصل الدين جهلا مثلاً، يحمل الاسم و لكنَّ حكمَ الردة و العذاب متوقف على قيام الحجة، وهذا هو المنهج الصَّواب الذي ارتضاه كثير من العُلماء و به يجتمع شمل الأدلة، ومن لم يسلكه يوشك أن يغرق في بحار الإرجاء أو يَتيهَ في فيافي الغُلُوِ، والدعاة في غنى عن الخوض في هذه المسائل لجمع شملهم و تحديد هدفهم الذي هو نشر الخير بإقامة الدين و إرساء التقوى، مع بيان ما يجب بيانه من تلك المسائل لحاجة الساحة الدَّعْوية، لَكِنْ بحكمة وعلى بصيرة.
و لا بُدَّ للداعية من أن يجعل من صلب اهتماماته الدعوةَ إلى تحكيم ما أنزل الله، والتحاكمَ إليه، والكفر بما يُحكم من دونه، وموالاة المؤمنين والتبرؤ من أعداء الله، فإنه لا تستقيم الدعوة إلى التوحيد إلا بذلك.
ثُمَّ إن على الداعية أن يَطرُق القلوب برفق لتخالطها بشاشةُ الإيمان، ذلك لأن القلوب بيوت أصحابها، ولا سبيل إلى ذلك القصد الذي تتغير به القناعات، إلا بالتخلق بأحسن الأخلاق، و أكرم الشيم، والأخذ بأليق الأساليب وأقرب السبل، بعيدا عن طرفي الإفراط و التفريط.
2.الدعوة للإتباع:
والإتباع هو غاية الدعوة العظمى ومقصدها الأسمى، فَبِهِ تُدْفَعُ المفاسد وتجلب المصالح، وتكتسب مكارم الأخلاق، فتُظِلُّ المجتمعَ سحائبُ الهدى، ويتنسم نفحات الفضيلة في رياض السنة المُمْرِعة، والإتباع هو دليل صحة الإيمان، وبرهان صدق المحبة، يقول سبحانه:} قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {] آل عمران:31 [.
ورسول الله صلى الله عليه و سلم أولى الناس بالإتباع، ذلك لأنه أكرم الناس وأحسنهم خلقا و أحرصهم على إنقاذ البشرية من ظلمات الشرك والعناد إلى نور الهداية والرشاد، بل

هو الرسول الأمين المبعوث رحمة للعالمين، فالسَّعيد من استجاب له، ودعا بدعوته ولم يرغب بنفسه عن شيء قام به صلى الله عليه و سلم، والشقي من رغب عن سنته وخالف هداه.
مكانة السنة:

إنه بقدر معرفة مكانة السنة وقدر صاحبها عليه الصلاة والسلام، بقدر ما ازداد المرءُ لها اتِّباعًا وحُبًا وتعلما.
والسُّنة هي المبينة للقرآن، يقول تعالى:} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ {[النحل:44 [.
وقال سبحانه} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى {[النجم:3 - 4 [.
وقد قال صلى الله عليه و سلم (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعناه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه) (1).
فليدع الداعية إلى السنة بجد، منوها بمكانتها ومبينا ثراءها، فإن صاحبها صلى الله عليه و سلم لم يترك خيرا إلا ودل عليه، ولا شرا إلى وحذَّر منه، وعلم كل شيء وبينه كما قال سلمان حين قال له يهودي قد علمكم نبيكم كلَّ شيء حتى الخراءة؟ قال: أجل (نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجي باليمين، وأن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو عظم) (2).
تعلم السنة:
والقرآن والسنة حافلان بالحض على التَّمسك بهدي النبي صلى الله عليه و سلم واستنهاض الهمم لتعلمه، كما أن فيهما أعظمَ زاجر عن الإعراض عنهما تعلما وعملا، وأدرك ذلك خير جيل، جيل الصحابة رضوان الله عليهم، فقد روى الدارمي [252] عن ابن مسعود أنه قال (اغْدُ عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك).

---

(1) ورواه الترمذي (2800) وأبو داوود [4604] وصَحَّحَهُ الألباني في صحيح سنن أبي داوود [3848].
(2) صحيح مسلم 262.

وعن سلمان رضي الله عليه قال: (لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس) (1)، وخير ما يتعلم كتابُ الله وسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض) (2)، فعلى الداعية الاجتهاد في الدعوة لتعلمهما حتى ينهل الناس من معينهما الذي لا ينضب.
تعظيم حديث النبي صلى الله عليه وسلم:
ويتمثل هذا التعظيم في إجلاله، والعمل به وتقديمه، والبعد عن هجرانه، وقد قال سبحانه:} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ {[الحجرات:2 [.
وقد كان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي صلى الله عليه و سلم أمر الحاضرين بالسكوت، فلا يتحدث أحد ولا يُبْرى قلمٌ، ولا يبتسم أحد، ولا يقوم أحد قائما، كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة، فإذا رأى أحدا منهم تبسم أو تحدث لبس نعلَه وخرج (3).
وكان الإمام مالك رحمه الله " إذا جلس للفقه جلس كيف كان وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب ولبس ثيابا جُدُدا، وتعمَّم وقعد على منصبه بخشوع

وخضوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلى فراغه تعظيما للحديث " (4).
وقد ظهر هذا التعظيم في تعامل السَّلف مع من لا يقف عند حدود أحاديث النبي صلى الله عليه و سلم بالسمع والطاعة، ومن ذلك ما صَحَّ عن عبد الله بن المغفل (أنه رأى رجلا من أصحابه يخذف. فقال له: لا تخذف، فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان ينهى عن الخذف وكان يكرهه. ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال له: ألم أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان ينهى عنه ثم أراك تخذف؟ والله لا أكلمك أبدا) (5).

_____

(1) الدرامي 253.
(2) رواه مالك والحاكم واللفظ له وصححه الألباني في صحيح الجامع 2937.
(3) سير أعلام النبلاء 201/ 9.
(4) تذكرة الحافظ للذهبي 196/ 1 الشفا 601/ 2.
(5) صحيح مسلم 1945 سنن الدرامي 124/ 1.

وقال أبو هريرة: (حرم رسول الله صلى الله عليه و سلم ما بين لابتيها -يريد المدينة- فلو وجدت الظباء ساكنة ما ذعرتها) (1).
وعن ابن عباس قال: (تمتع النبي صلى الله عليه و سلم، فقال عروة بن الزبير نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون، أقول قال النبي صلى الله عليه و سلم ويقولون نهى أبو بكر وعمر) (2).
وحدَّث ابنُ سيرين رجلاً بحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم فقال رجل: قال فلان وفلان كذا، فقال ابن سيرين: (أحدثك عن النبي صلى الله عليه و سلم وتقول قال فلان وفلان كذا وكذا؟ والله لا أكلمك أبدا) (3).
وقال الشعبي لرجل: (ما حدثوك هؤلاء عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فخذ به وما قالوه برأيهم فألقه في الحش) (4).
وقال ابن أبي الزناد: (كان سعيد بن المسيب وهو مريض يقول أقعدوني فإني أعظم أن أحدث حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم وأنا مضطجع) (5).
صحبة أهل السنة:
إن انتشار الجهل وغياب السنن مما يجعل الحالة مزرية والحاجة ملحة إلى الصحبة الصالحة التي ترشد إلى الخير، وتدل على الفضيلة، لذلك ينبغي للداعية أن يصحب أهل السنة ويدعوَ إلى صُحبتهم وملازمتهم وحضور مجالسهم.
وقد روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال (مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة) (6).

_____

(1) البخاري 6644.
(2) جامع بيان العلم وفضله 1210/ 2.
(3) الدرامي 1/ 124، رقم 247.
(4) الدارمي 72/ 204،1.

(5) الجامع للخطيب البغدادي 45/ 2 جامع بيان العلم 1220/ 2.
(6) البخاري مع الفتح 5534/ 9/577.

وقد قال صلى الله عليه و سلم (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم مَنْ يُخَالِلْ) (1).
وعن أيوب قال (إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة) (2).
وعن عبد الله بن شوذب قال (إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يُواخي صاحبَ سنة يحمله عليها) (3).
التحذير من الابتداع في الدين:
وقد كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا خطب الناس احمرَّت عيناه، وعلا صوتُه، واشتد غضبُه، كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم، ويقول بُعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ثم يقول (أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه و سلم، وشر الأمور محدثاتُها، وكل بدعة ضلالة) (4).
وقد قال صلى الله عليه و سلم كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه (... فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) (5).
فقد كان النبي صلى الله عليه و سلم شديد الحرص على الحض على الكتاب والسنة تمسُّكًا بهما، ثم يحذر من البدع ومحدثات الأمور فلم يترك صلى الله عليه و سلم مجالا للابتداع.
وقد قال سبحانه:} الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا {[المائدة: 3].
وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) (6) وفي رواية لمسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)
وقد سار

_____
(1) أبو داوود 4833 وحسنه الألباني 404.
(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي 30.
(3) شرح اللالكائي 31.
(4) حديث جابر في صحيح مسلم 1218.
(5) رواه الترمذي 2676.
(6) البخاري 2697 ومسلم 1718.

الصحابة الكرام على هدي النبي صلى الله عليه و سلم منكرين لمحدثات الأمور، فما ترك رسول الله صلى الله عليه و سلم خيرا إلا ودل عليه، ولا شرا إلا وحذر منه.
قال ابن كثير: (وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل أو قول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه) (1).

التحذير من اتباع الهوى ومصاحبة أهله:
ذلك لأنه لا سبيل إلى اتباع النبي صلى الله عليه و سلم إلا بالتجرد من الهوى، ومن لم يعمل بالسنة ويهتد بالهدي النبوي فقد عمل بالجهل واتبع الهوى.
يقول سبحانه:} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {] القصص: 50 [.
وقال عز وجل:} أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {] الجاثية: 23 [.
وقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يستعيذ بالله من الأهواء، يقول (اللهم إني أعوذ بك من منكرات الآخلاق والأعمال والأهواء) (2).
وعن معاوية قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (... وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله) (3).
ومما نقل عن السلف في التحذير من مجالسة أهل الأهواء ما ذكره ابن بطة عن ابن عباس قال: " لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلب " (4).
وقال أبو قلابة: " لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما تعرفون " (5).

_____
(1) تفسير ابن كثير (4/ 156).
(2) الترمذي 3591 وصححه الألباني في صحيح الترمذي.
(3) أبو داوود 4597 وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داوود.
(4) الإبانة الكبرى 438/ 2.
(5) الإبانة الكبرى 437/ 2.

فعلى الداعية أن يُحذِّر المدعُوّين من إتباع الهوى، و ينذرهم عاقبته الوخيمة لتفتح أمامهم أبواب الإتباع ويتجلى لهم الرشاد، عندما يكون الباعث على العمل موافقة الشرع لإتباع الهوى.
إتباع طريقة السلف:
ذلك لأنه سبيلٌ لابد من الأخذ به لتحقيق اتباع هدي النبي صلى الله عليه و سلم الذي نقلوا لنا على أحسن ما يكون النقل، وقد قال سبحانه فيهم:} وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {] التوبة:100 [.
وقال صلى الله عليه و سلم: (لا تسُبُّوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه) (1)، وعن ابن مسعود قال: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم) (2).
وقد ذكر أن المتمسكين بما كان عليه صلى الله عليه و سلم وأصحابُه هم الفرقة الناجية، فقال: (... وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلاَّ ملة واحدة، قيل من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي) (3).
وقد جاء أن عائذَ بنَ عمرٍو دخل على عبيد الله بن زياد، فقال: (إني سمعت رسول

الله صلى الله عليه و سلم يقول:"إن شر الرعاء الحطمة، فإياك أن تكون منهم ". فقال: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم. قال: وهل كان لهم أو فيهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم و في غيرهم) (4).
و قال ابن مسعود: " من كان مُستنًّا فلْيستَنَّ بمن قد مات، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله عليه وسلم، كانوا أفضل هذه الأمة أبرَّها قلوبا، وأعمقها علما، و أقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، و

(1) البخاري3673 مسلم 2541.
(2) البخاري 2651.
(3) رواه الترمذي 2641و صحيح سنن الترمذي 2129.
(4) رواه مسلم 1830.

اتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم، ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " (1).
فمن أراد التمسك بالدين و اتباع سنة الأمين صلى الله عليه و سلم إتباعا صحيحا فليضبط فهمه للشريعة وعمله بها بالمنهج الذي كان عليه رسولُ الله صلى الله عليه و سلم وصحابتُه الكرام و من سار على هديهم، لاسيَّما في هذا الزمان الذي ازدادت الحاجة فيه إلى تَعلُّم ما كان عليه السَّلف الصالح و العمل به.
التحذير من التقليد الأعمى:
وهو الذي يَرُدُّ صاحبُه النصوص الصريحة الصحيحة لقول أسلافه ومشايخه، وقد ذمَّ اللهُ سبحانه هؤلاء في قوله:} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ {] المائدة:104 [.
قال ابن كثير: " أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك} وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ {أي لا يفهمون حقا ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلاَّ من هو أجهل منهم وأضل سبيلا " (2).
وقال تعالى حكاية عن أهل النار:} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا {] الأحزاب:67 [.
قال الشوكاني: " والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم وفي هذا زجر عن التقليد شديد. وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على مثل هذا والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به، وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم، ومزيد البلادة، وشدة التعصب " (3).

(1) شرح الطحاوية 546/ 2.
(2) تفسير ابن كثير2/ 108 - 109.
(3) فتح القدير 431/ 4.

وقد تضافرت الأقوال عن السلف في إيجاب الإتباع، وذم التقليد، فقد قال ابن عباس: " والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، نحدثكم عن النبي صلى الله عليه و سلم وتحدثونا عن أبي بكر وعمر " (1).
وعن ابن مسعود قال: " ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإن كنتم لا بد مقتدين فبالميت فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة " (2).
وفي رواية: " لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشَّر " (3).
فما لم يبين الداعية حقيقة التقليد وخطورته فسيبقى حاجزا قويا دون إتباع الحق والتجرد من القيود التي تخنق روح التجديد.
التحذير من رد الأحاديث الصحيحة:
ينبغي للداعية الدعوة إلى قبول أحاديث النبي صلى الله عليه و سلم والانقياد لها، يقول سبحانه:} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا {] النساء:65 [.
قال ابن كثير: " يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحدكم حتى يحكم الرسول صلى الله عليه و سلم في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا، ولهذا قال:} ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما {أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلموا لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة " (4).
وقال الحميدي: " كنا عند الشافعي رحمه الله فأتاه رجل فسأله في مسألة فقال: قضى فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم بكذا. فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟ فقال:

---

(1) جامع بيان العلم1209.
(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة 130.
(3) إعلام الموقعين 135/ 2.
(4) تفسير ابن كثير 520/ 1.

سبحان الله تراني في كنيسة؟ تراني في بيعة؟ ترى على وسطي زنارا؟ أقول لك قضى فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم وأنت تقول: ما تقول أنت؟ " (1).
وقال عمر بن عبد العزيز: " لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله صلى الله عليه و سلم " (2).
وعن الشافعي قال: " أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس" وكان يقول: " لا قول لأحد مع سنة رسول الله صلى عليه وسلم ". وقال ابن خزيمة: " لا قول لأحد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا صح الخبر عنه " (3).
وقال ابن القيم: " ومن الأدب معه ألا يستشكل قولُه، بل تستشكل الآراءُ لقوله، ولا يعارضَ نصُّه بقياس، بل تهدر الأقيسةُ وتلقى لِنُصوصِهِ، ولا يُحرف كلامُه عن حقيقته لخيال عن الصواب معزول، ولا يُوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكان هذا من قلة الأدب معه صلى الله عليه و سلم، بل هو عين الجرأة "

(4).
فترك الأحاديث الصحيحة لأقوال الناس، أو عدم إمكان العمل بها كما يقول الخاسرون، أو لأنها أحاديث آحاد، أو تأويلها أو نسخها بالظنون كما يفعل المقلدون، كل ذلك مما يجب على الداعية الوقوف ضده بقوة، والتصدي له بدعوته إلى اتباع هدى النبي صلى الله عليه و سلم بأوضح البراهين وأقوى الحجج.
التحذير من اتباع المتشابه:
ذلك لأن من الناس من لا يحقق الإتباع، بسبب آراء معتلة وخيالات مُخْتَلَّة أثارتها شبهات يتوهم أنها تدل على الحق وتربط بالهدى.
وقد روى البخاري من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم) (5)، وعن عمر قال:

---

(1) سير أعلام النبلاء 34/ 10 وحيلة الأولياء 106/ 9.
(2) إعلام الوقعين 135/ 2.
(3) إعلام الموقعين 2/ 202.
(4) مدارج السالكين 2/ 406.
(5) البخاري 4547.

(إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسُّنن فإن أصحابَ السُّنن أعلم بكتاب الله) (1).
وقد كان السلفُ حذرين أشدَّ الحذر من مجالسة أهل الشبهات، فقد قال مفضل بن مهلل: " (لو كان صاحب البدعة إذا جلست إليه يحدثك ببدعته حذَرْتَه وفَرَرْتَ منه ولكنه يحدثك بأحاديث السنة في بدو مجلسه، ثم يُدخل عليك بدعته، فلعلها تلزم قلبك فمتى تخرج من قلبك؟ " (2).
وقال رجل لابن سرين: إن فلانا يريد أن يأتيك ولا يتكلم بشيء قال: " قل لفلان: لا، ما يأتيني. فإن قلبَ ابن آدم ضعيف، وإني أخاف أن أسمع منه كلمة فلا يرجع قبلي إلى ما كان" (3).
الدعوة للتدبر وفهم النصوص:
وقد رزق الله الناس العقول ليتدبروا بها ويعتبروا وهذا شأن أولي الألباب وقد قال سبحانه:} أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {[محمد:29].
يقول السعدي في تفسيره: " أي فهلا يَتَدبَّر هؤلاء المعرضون كتابَ الله ويتأمَّلونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه لَدَلَّهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر ولَمَلأَ قلوبهم من الإيمان وأفئدتهم من الإيقان، ولَأَوْصَلَهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية، ولبيَّن لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى الجنة ومكملاتها ومفسداتها، والطريقَ الموصلةَ إلى العذاب، وبأي شيء يحذر، ولعرَّفهم بربهم بأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهَّبهم من العقاب الوبيل" (4).
وقد يسر الله لشريعته علماء يفتون الجاهل، ويقربون له البعيد، ويحفظون بإذن الله سنة نبيه صلى الله عليه و سلم وينفون عنها الضعيف والموضوع، فتَسَنَّى

بحمد الله فَهْمُ النصوص، ويسَّرَ اللهُ بفضله العمَلَ بها.

(1) رواه الدارمي 119.
(2) الإبانة الكبرى 444/ 2.
(3) الإبانة الكبرى 446/.
(4) تفسير السعدي 7/ 80.

إن الناظر في حال المجتمع لَيُدركُ أن المجتمع في أَمَسِّ الحاجة إلى الدعوة على سبيلٍ القصد، بين طرفي الإفراط والتفريط، ولمَّا كانت ثمارُ السنة يانعة وقطوفُها دانية، وكانت منهلاً للخير، ومنبتًا للمكرمات، كان لِزامًا على الداعية اكتسابُها والدعوةُ إلى ملازمتها.

4. سبيل نجاح الدعوة:

1.أساليب الدعوة:

إن على الداعية وهو في مقامه السامي يُزاوِلُ وظيفتَه النبيلة، أن يُراعيَ أحوالَ المدعوين وظروفهم، فيتَّبع الأسلوبَ اللائقَ المناسبَ الذي يمكنهم من نيل قطوف دعوته الدانية و التَّرَوُّضِ في ظلها الوارف.

إن القدوة الحية والأسوة الحاضرة في نفسِ الداعية وعملِه هي ممَّا يُخلِّف الأثرَ القويَّ في نفس المدعو، ويبلغ هذا التأثير ذُرْوتَهُ عندما يمتزجُ بالأسلوب الذي يؤدي إلى الإقناع وقبول البرهان، لا سيَّما مع التأثير العاطفي الذي يستميل القلب ويَلْمَسُ منه جواذبَ الوداد.

مخاطبة العقل وملاسة العاطفة:

إنه بمخاطبة العقل تكون النتيجةُ بعد التأمل والتفكير دقيقة، وتكون العبرةُ بليغة وبملامسة العاطفة يَرِقُّ القلبُ وتنشط النفوسُ، مستعدة لقبول الخير، و اتباع الحق ولذلك أساليب مختلفة:

· أسلوب المقارنة:

وهي مقارنة يتوصل العقل بعدها إلى استنباط الحقائق، ومثاله ما جاء في حديث أبي موسى الأشعري أن رسول صلى الله عليه و سلم قال: (إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة) (1).

فقد تجلى في هذه المقارنة الدعوة إلى مجالسة أهل الصلاح، والترغيب فيما فيها من خيرات، كما تجلَّى فيها النهيُ عن صحبة أهل الفساد، والترهيبُ من وَيْلاتِها، فهي مقارنة في غاية البلاغة والروعة، ولذلك قال النووي: " وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة

(1) البخاري 5534.

ومكارم الأخلاق والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشَّر والبدع ومن يغتابُ الناس ويَكثُر فُجْرُه وبطالتُه ونحو ذلك من الأنواع المذمومة " (1).

· أسلوب عرض المعطيات والأقوال المخالفة وتركها تمر حتى إذا استوفاها

صاحبها استخلص الداعية منها حجة دامغة وبرهانا قاطعا يبطل به مقولة الخصم:
ومثاله قوله تعالى:} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {] البقرة:258 [.
فادِّعاءُ النمرود أنه يحيي ويُميت يستلزم أن يكون هو المتصرف في الخلق وهذا باطل جلي في عجزه وكذبه، فتجاوز إبراهيم إليه، فعندئذٍ بُهت النَّمرودُ وبطل ادِّعاؤُه الأول.
· أسلوب التقرير:
وهو يؤول بالمرء بعد مخاطبة عقله وملامسة عاطفته إلى محاكمة نفسه والإقرار بالحق، ومثاله ما رواه أحمد: (عن أبي أمامة الباهلي قال: إن فتى من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله أتأذن لي بالزنى؟ فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال صلى الله عليه و سلم: "أدْنُهْ"، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: "أتحبه لأمك؟ " قال لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم" قال: "أتحبه لبنتك؟ " قال: لا جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم" قال: "أتحبه لعمتك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم" قال "أتحبه لخالتك؟ " قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: "فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر له ذنبه، وطَهِّرْ قلبَه، وأحصن فرجه"، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء) (2).
· التشويق:
إنه لا بد للداعية من اكتسابه، وذلك بمعرفته لواقع المدعوين، وحياتهم فيُضفي على خطابه الدعوي مَسْحَةً شيِّقة تمزج بين تبليغ العلم ومراعاة العواطف واستعداد النفوس

_____
(1) شرح مسلم 6/ 78.
(2) أحمد 5/ 257

للتلقي، وبذلك تشتاق النفوس لقبول الخير، وتنفتح القلوب لسماع الحق، وتنشرح الصدور، ويقعُ الإنصاتُ والحضور.
قال ابن الجوزي: " رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي، إلا أن يُمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين، فأما مجرد العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترق القلوب بذكر الأحاديث وأخبار السلف الصالحين " (1)، هذا مع استصحاب جميل الشعر وبليغ الأمثال.
ولا ينبغي للداعية إهمال خطابه، والغضُّ عن جزالته وقوة سبكه، بل يحسن الخطاب، ويتفاعل معه، فإن في ذلك إذكاءً للهم، وإشعالا للعزائم.
· التدرج:
ذكر الشاطبي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال يوما لأبيه عمر: مالك لا تنفذ الأمور فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق. قال عمر: لا تعجل يا بُنَيَّ فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وإني أخاف

أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه جملة، ويكون في ذلك فتنة. (2)
وقال الإمام محمد بن شهاب الزهري: " من رام العلم جملة ذهب عنه جملة ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي " (3).
وقال الحافظ ابن حجر: " الشيء إذا كان ابتداؤه سهلا حُبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط وكانت عاطفته غالبا الازدياد بخلاف ضده " (4).
إن أوائل العلم تؤدي إلى أواخره، ومن رام أواخره دون المرور بأوائله كان كمن يبني على غير أساس، يقول الشاطبي: " ليس كلما يعلم مما هو حق يطلب نشره إن كان من علم الشريعة وما يفيد علما بالأحكام، بل ذلك ينقسم فمنه ما هو مطلوب، وهو غالب علم

_____
(1) صيد الخاطر ص 197.
(2) الموافقات 2/ 93.
(3) جامع بيان العلم 138.
(4) فتح الباري 1/ 163.

الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بالإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص " (1).
· الترغيب والترهيب:
هما أمران لا ينبغي أن يكون أحدُهما على حساب الآخر، فيرغب في الخير بقدر ما يزجر ويُخَوِّف من الشر، فلا ينبغي أن يَدْعُوَ الداعي إلا واصطحب معه من الترغيب فيه ما يجعل النفوس تحن إليه، وتتسابق إلى القيام به، وهكذا في تحذيره من الشر، يزجر عنه ببيان عاقبته الوخيمة، وعقوبة أهله الأليمة، أما مجرد العرض الخالي من الترغيب والترهيب فلا يكاد يثمر، ومن تأمل القرآن وتدبره وجد هذا الأمر في غاية البيان ومنتهى الحسن.
· مراعاة الأفهام والمدارك:
إنه من الضروري أن يُرَاعِيَ الداعيةُ مدارك المدعوين لتثمر دعوتُه، فالأفهام والمدارك تختلف من شخص لشخص، وتتفاوتُ بسبب اختلاف البيئات وتباين المستويات العلمية، فمتى كان المدعوُّ قاصرَ الفهم، عاجزًا عن ادارك حقيقة ما يقول له الداعي، وجد التأثيرُ السَّلبيُّ سبيلَه للظهور.
قال تعالى:} فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى {] الأعلى:9 [، قال ابن كثير: " أي ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن هنا يؤخذ الأدبُ في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله " (2).
وقال البخارى في كتاب العلم من صحيحه: " باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا "، ثم روى عن علي رضي الله عنه قال: (حَدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ و رسولُه).
وروى مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود قال: (ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم ألا كان لبعضهم فتنة) (3).
إنه إذا لم يختر الداعية الحديث المناسب الذي تدركه العقول، فإنه ينتج عن ذلك إضطراب وبلبة، ويَبقى المدعوون في حيرة وتذبذب، ولذلك عَدَّ الشاطبي هذا النوعَ من

(1) الموافقات 4/ 191.
(2) تفسير ابن كثير 4/ 500
(3) صحيح مسلم الحديث 14 ص 14طبعة في مجلد واحد, دار الفكر2004.

التجاوز ابتداعا، فقال: " ومن ذلك التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه، فإنه من باب الحكمة في غير موضعها وسامعُها إما يفهمها على غير وجهها، وهو الغالب، وهي فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق والعمل بالباطل، وإما لا يفهم منها شيئا وهو أسلم " (1).
· مراعاة العوائد والتقاليد:
يقول سبحانه:} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {] إبراهيم:4 [، فقد اقتضت حكمة الله تعالى وكان: " من لطفه تعالى بخلقه أن يرسل رسلا منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به " (2).
(ولذا ينبغي للداعية التَّنبُّهُ والحرصُ على معرفة الأعراف والعوائد في البيئة التي يدعو فيها لتكون دعوتُه مؤثرةً في النفوس، مُقنعةً للعقول، محببة للقلوب مناسبة للظروف، قابلة للتطبيق، وحتى لا يخرج عن واقع الناس، فيتكلف بإنكار ما لا وجود له مثلا، فيقع إثر ذلك افتتان.
وكما يقال "لكل مقام مقال" ولكل حادث حديث"، نقول لكل بيئة أسلوب دعوة، ولكل ظرف خطاب إصلاحي، ومن ثَمَّ نزيد الأمور وضوحا بلزوم التفريق بين خطاب العامة وطبقة المثقفين أو المنظرين، فبالنسبة للعامة عليه أن يلقنهم المقدمات والنتائج معا، لأن وضعيتهم الذهنية والثقافية لا تمكنهم من الوصول إلى المحطات النهائية في كل قضية، أما في خطاب أفراد الصفوة فينبغي أن يبتعد قدر الإمكان عن فرض النتائج على المخاطب، بل تُعرض القضايا بحيث يصل هو إلى نتائجها، أو على الأقل أن يشارك في ذلك، لأن النتيجة من نِتاجه، ولأن المطلوب هو عينُ ما توصَّل إليه بعقله واستنتاجه) (3).
وفي حديث ابن عباس لما أرسل صلى الله عليه و سلم معاذا وقال له: (ستأتي قوما أهل كتاب) .. الحديث (4)، قال ابن حجر رحمه الله: " قوله: (ستأتي قوما أهل كتاب) هي في كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أعلمَ في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان) (5).

(1) الاعتصام 2/ 13
(2) تفسير ابن كثير 2/ 522.
(3) مقومات الداعية الناجح 131.
(4) البخاري 7378 ومسلم 2804
(5) فتح الباري 3/ 350

وقال القرطبي رحمه الله: " وإنما نبَّهَهُ على هذا ليتهيأ لمناظرتهم، ويُعِدَّ الأدلة لإفحامهم، لأنهم أهل علم سابق، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان " (1).

· مراعاة الأولويات:
إنه من الضروري معرفة مراتب الأعمال، ووضع كل عمل في موضعه وقد دل النبي صلى الله عليه و سلم على ذلك وأرشد إليه في حديث بعث معاذ المتقدم، فنجده صلى الله عليه و سلم يأمره بدعوتهم إلى التوحيد الذي هو أصل الأصول، إذ لا ينبغي التجاوز إلى غيره من الأصول قبل إقامته ودعوتهم إليه، فضلا عن الفروع، وقد قال تعالى:} أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {] التوبة:19 [.
فلا ينبغي إنزالُ الأعمال نفسَ المنزلة في الدعوة إليها، وفي سبيل تحقيقها، بل يُقدَّم أولى الأولويات، وأهم المهمات، فيقدم التوحيد على باقي الأصول، وهكذا تقدم الفرائضُ على النوافل، وفروض الأعيان على فروض الكفاية، وهذه يقدم منها ما فيه عجز قبل المتوفر، لأنه بقدر ما كانت دعوة الإنسان لما هو محتاج إليه بقدر ما وجدت التأثير، ولَقِيَت القبول، وهو ما لا يتم إلا بمعرفة الواقع، كيما يُحَدِّدَ الداعية حاجاتِ المجتمع، ثم يرتبها للدعوة إليها حسب أهميتها.
· النظر في المآلات:
ينبغي للداعية النظر في مآلات الأمور، قال الشاطبي رحمه الله: " قد يكون العمل في الأصل مشروعا لكن يُنهى عنه لما يؤول إليه من المفسدة، أو ممنوعا لكن يُترك النهي عنه لما في ذلك من المصلحة، وكذلك الأدلة الدالة على سد الذرائع كلها، فإن غالبها سماح تذرع بفعل جائز إلى عمل غير جائز، فالأصل على المشروعية، لكن مآلَه غيرُ مشروع، والأدلةُ الدَّالَّةُ على التوسع ورفع الحرج كلها، فإنها غالبها في عمل غير مشروع في الأصل لِمَا يؤول إليه من الرفق المشروع، ولا معنى للإطناب بذكرها لكثرتها واشتهارها، قال ابن العربي حيث أخذ في تقرير هذه المسألة: "اختلف الناس في زعمهم فيها، وهي متفق عليها بين العلماء، فافهموها وادخروها") (2).

_____
(1) المفهم ,شرح صحيح مسلم 1/ 181.
(2) الموافقات 4/ 163.

وقال في ضرورة مراعاة المصلحة الشرعية بعد عرض المسألة على الشريعة: " فإن صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمن وأهله فإن لم يؤد ذكرُها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تتقبل العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن للمسألة هذا المساغ فالسكوت هو الجاري على المصلحة الشرعية والعقلية " (1).
· النظر في المصالح والمفاسد:
وهذا من الأمور الدقيقة التي يجب على الداعية مراعاتها في دعوته إلى الخير، فلا بد له من النظر العميق، والبحث الحثيث، ليقف عند المصالح فيجلبها والمفاسد فيردها.
قال شيخ الإسلام: " فالعمل الواحد يكون فعله مستحبا تارة، وتركه مستحبا تارة، باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية والمسلم قد

يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحته " (2).
وقد قال الحافظ رحمه الله في الفتح (1/ 223) عند تعليقه على حديث النبي صلى الله عليه و سلم الذي روى البخاري في كتاب العلم من صحيحه أنه صلى الله عليه و سلم قال: (يا عائشة لولا أن قومك حديث عهدهم - قال: بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين، بابا يدخل الناس وبابا يخرجون). " ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولا ما لم يكن محرما " (3).

· الوقت الملائم:

وهو أيضا مما يجب مراعاته ليستعد المدعوون للتَّلَقِّي، ولئلا يملوا، وقد روى البخاري وغيره أن ابن مسعود كان يذكر في كل خميس مرة فقيل له لو ذكرتنا كل يوم؟ فقال: " أما إنه يمنعني من ذلك كراهة السآمة، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا ".

---

(1) الموافقات 4/ 191.
(2) مجموع الفتاوي 24/ 195.
(3) فتح الباري 1/ 223

وقال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: " ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد والعمل الصالح خشية الإملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة ولكنها على قسمين، إما كل يوم مع عدم التكلف، وإما يوما بعد يوم فيكون الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط، وإما يوما في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط " (1).
فينبغي للداعية مراعاة أحوال الناس وظروفهم، فلا يملهم ولا يقنطهم ولا يحدثهم حال انصراف قلوبهم .. وإنما عليه أن يغتنم وقت تهيئهم لتبلغ الدعوة فيهم أبلغ مدى.
إنه لا سبل إلى نجاح الداعية وبلوغ مرامه ما لم ينظر في الواقع بعين الإنصاف ويزن الأمور بدقة، ويسلك مسلك القصد بين الغلو والجفاء، فهو كما قال الشَّاطبي رحمه الله عن المفتي البالغ ذروة الدرجة: " يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة فإنه قد مَرَّ أن مقصدَ الشارع من المكلف الحمل على المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما عن المذهب الوسطي مذموما عند العلماء الراسخين فإن الخروج عن الأطراف خارج العدل ولا تقوم به مصلحة الخلق، إما في طرف التشديد فإنه مهلك، وإما في طرف الانحلال فكذلك لأن المستفتي إذا ذهب به مذهب العنت والحرج بغض إليه الدين وأدى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخر وهو مشاهد، وإما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة، و الشرع إنما جاء بالنهي عن الهوى و اتباع الهوى مهلك " (2).
إن هذا المنهج هو الذي يمكن الداعية من الاستمرار في دعوته والديمومة فلا يدفعه الإعراض عنها إلى التوقف أو الانتكاس والابتعاد عن روح الدعوة

وجوهرها، بل ينوع الأساليب، ويبتكر الطرق، متوخيا ما يظنه أنسب للتبليغ وأليق في الأحوال وأوغَل إلى القلوب وأجدر بالقبول حيث لا إفراط ولا تفريط.

· الائتلاف ونبذ الخلاف:

إن نصوصَ الكتاب والسنة حافلةٌ بأمر المؤمنين بالألفة والاجتماع، ونهيهم عن الفرقة والنزاع، يقول سبحانه:} وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا {[آل عمران:103]

---

(1) فتح الباري 1/ 163.

(2) الموافقات 214.4/ 213.

وقال:} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ {[الروم:31 - 32 [.

وقال صلى الله عليه و سلم: (يد الله مع الجماعة) (1).

ولا شك أن توحيد كلمة المسلمين، وجمع قلوبهم، ولَمَّ شملهم، وَرَصَّ صفوفهم من مقاصد الإسلام العظيمة، والدعوة إلى الله في أحوج ما تكون إلى ذلك. إنه ما لم يجسد الدعاة الألفة بينهم واقعا حيا، فستبقى دعوتُهم إلى الوحدة والاتفاق ونبذ التشرذم والافتراق ضعيفة الأثر، ناهيك عن إضعاف العزائم وإماتة الهمم وغير ذلك مما يخلفه اختلافُ الدعاة في نفس كل واحد منهم، فضلا عن استفادة المتربصين بالدعوة إلى الخير وأهلها من هذا الاختلاف الذي تطمئن له قلوبهم وتَقَرُّ به عيونُهم.

· التعاون والتكاتف:

يقول سبحانه:} وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان {[المائدة:2 [.

ويقول سبحانه:} وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ {[العصر:3 [.

وعظيمة هي ضرورة التآلف والتكاتف وتوحيد الصفوف لإقامة دين الله سبحانه ونشر دعوة النبي صلى الله عليه و سلم، ومن تأمل القرآن أدرك ذلك جليا، فقد قال سبحانه:} وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {[الأنفال:62 - 63 [.

فقد أيد الله نبيه صلى الله عليه و سلم بنصره وبالمؤمنين المتآلفة قلوبُهم المتعارفة على الإيمان وقال سبحانه، عن موسى عله السلام:} وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {[طه:29 - 31 [، وقال سبحانه عن قوم شعيب إنهم قالوا له:} وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ {[هود:91 [.

---

(1) رواه الترمذي وغيره , صحيح سنن الترمذي 1760.

قال الشوكاني رحمه الله: " رهط الرجل عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم " (1)، فكيف بمن اكتسب إخوة في الإيمان وأحبة في الله، يقفون إلى جانبه، ويشدون عضده، ويرفعون قدره، ويحفظون سرَّه، ويقيمون أمْرَه.

وقال سبحانه عن لوط:} قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ {[

هود:70].
وخير ركن يأوي إليه الداعية إخوة دعاة يشاطرونه الهموم، ويبادلونه الوداد يؤيده الله بهم، وقد قال صلى الله عليه و سلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهر) (2)، وعن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (المؤمن للمؤمن كالبيان يَشُدُّ بعضُه بعضا، وشبك بين أصابعه) (3).
إن الناس في اكتساب الرفيق مختلفون، فمنهم من غمره اليأس والقنوط، لشر الزمان ومرارة التجارب، فصار زاهدا في الأصدقاء على حد قول الشاعر:
وزهدني في الناس معرفتي بهم ... وطولُ اختباري صاحبا بعد صاحب ...
فلم أَرَ في الدُّنيا خليلا تسرني ... مباديه إلا ساءني في العواقب ...
ولا قلت أرجوه لدفع مصيبة ... من الدهر إلا كان إحدى المصائب

وليس سبيلُ الدعوة كذلك، فلا يخلو الناس من صُدُقٍ خيرين.
ومن الناس من يحبذ نهج من قال:
كلانا غني عن أخيه حياته ... نحن إذا متنا أشد تغانيا

فهم لا يتكلفون البحث عن الرفقاء ولا استقاطابهم ماداموا معرضين عنهم لا يبادلونهم الشعور، وأحسن أحوالهم قول من قال:
غنينا بنا عن كل من لا يريدنا ... لو كثرت أوصافُه ونُعوتُه

---
(1) فتح القدير: المجلد1ص 819.
(2) رواه البخاري 6011 ومسلم 2586.
(3) رواه البحاري 481 ومسلم (2586).

فمن جاءنا يامرحبًا بمجيئه ... وَجِدْ عندنا وُدًّا صحيحٌ ثبوتُه ...
ومن صد عنا حسبه البينُ والقِلَى ... مَن فاتَنا يكفيه أنَّا نفوتُه

وليس هذا بالضرورة منهجَ الدعاة، فهم لا يسأمون، ولا يُجازون بالسيئة السيئة، وإنما يَصْفَحون ويترقبون الوصال، وطلوعَ فجر الصَّفاء، ويتجشَّمون ... عناءَ البحث عن الأخ الصَّديق، ويخوضون الصِّعاب حفاظا على الخل الرفيق.
أخاك أخاك إن من لا أخا له ... ساعٍ إلى الهَيْجَا بِغَيْرِ سلاح

· الولاء والمحبة:
إنه لا سبيل إلى تعاون الدعاة وتآلفهم ما لَمْ يستشعروا المحبة بينهم والأخوة ويعملوا وفقا لِمَا تُمْليه تلك العلاقة الإيمانية التي من لوازمها الولاء، لا سيما لأهل الدعوة إلى الخير، يقول سبحانه:} وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {] التوبة:71].
ولا سبيل إلى تحقيق الإيمان إلا مع مولاة المؤمنين ومحبتهم، وقد روى البخاري عن ابن مسعود قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى عليه وسلم فقال: يا رسول

الله كيف تقول في رجل أحبَّ قوما ولما يلحقْ بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: المرء مع من أحب) (1).
وبحبه في الله لأخيه المؤمن يحبه الله، ومن أحبه الله وُضع له القبول في الأرض، فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهلُ السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض) (2).
ولا ترسى دعائم المحبة ولا تغرس جذور الصفاء إلا بالإتيان بمقتضيات الأخوة الإيمانية، من حقوق وواجبات، وتخلق بمكارم الأخلاق، فإن مما يُقَوِّي الصحبة، ويُنَمِّي المودة، التزاور بين الدعاة لاسيَّما بين الأصدقاء منهم.

(1) صحيح البخاري 6169
(2) صحيح البخاري 6040

وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:) لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يَمُرَّ عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى طرفي النهار بكرة وعشية) (1).
· التعامل مع المخطئين:
إن الداعية ناصح بطبعه لإخوته الدعاة، وإذا رأى من أحدهم مخالفة فلا يتبرأ منه، ولا ينكر خيره، فإن المؤمن -لا سيما الداعية- كالجوهرة لا يُتخلَّى عنه إذا سقط بين الأقذار، بل يُرفع ويُصقل من معين المحاسن، ويُجعل له من جميل صنعه درعا تقيه سهام المتربصين بدعوته، وأحْسَنَ مَنْ قال:
وليس فرارُ اليوم عارًا على الفتى ... ذا عُرفت منه الشجاعةُ بالأمس

وإذا كان الصَّبر سجية للداعية ومطية يركبها في طريق دعوته للناس إلى الخير، فإن أصبر ما يكون الداعية مع إخوته الدعاة فيتحمل منهم ما لا يتحمل من غيرهم، حرصا على لمِّ شملهم ووصلهم، وحفاظا على سير قافلة الدعوة المباركة ثم قبولا لشفاعة المحاسن:
وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقد روى البخاري عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم) (2).
وروى أيضا عن ابن مسعود قال: (قسم النبي صلى الله عليه و سلم قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله. قلت: أما لأقولن للنبي صلى الله عليه و سلم، فأتيته وهو في أصحابه، فسررته، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه و سلم وتغير وجهه وغضب حتى وددت أني لم أكن أخبرته ثم قال: قد أُوذِيَ موسى بأكثر من ذلك فصبر) (3).

(1) صحيح البخاري 6079

(2) رواه البخاري 6099
(3) رواه البخاري 6100

حتى وإن كان حقا بينه وبين ربه، فالواجب نصحه وستره ورجاء توبته منه وحسن سيرته بعده، فقد قال صلى الله عليه و سلم: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) (1)، والدعاة إلى الخير وإن أخطأوا فهم أبعد ما يكونون من المجاهرة.
إنه لا ينبغي أن يسلك المؤمن مسلك القنوط واليأس من أخيه المبتلى بالمنكرات والآثام، فكيف يكون كذلك مع أخيه الداعية عند وقوعه في المخالفات وهو ليس معصوما، بل وقوعه في الذنب من مقتضيات البشرية و لكثيرًا ما استفاد من ذنبه لحكم أودعها الله في الذنوب لا يعلم حصرَها إلا الله.
وعن أبي هريرة قال: (أتي النبي صلى الله عليه و سلم بسكران، فأمر بضربه، فمنا من يضربه بيده، ومنا من يضربه بنعله، ومنا من يضربه بثوبه، فلمَّا انصرف قال رجل: مالَه؟ أخزاه الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم) (2).
إن تعامل الدعاة مع أخطاء بعضهم يحتاج إلى كثير من الحكمة والجرأة فضلا عن معرفة الحقائق ومعطيات الواقع، إن منهم من تقوده الحميَّة ودعوى الغيرة على الدين، ووهم الانتصار للحق إلى شنِّ هجومٍ شرس على الدعاة المخطئين في نظره، أو المخطئين فعلاً، بل يعلنها حربا لا هوادة فيها، فينتج عن ذلك فَقْدُ مكاسبَ دعوية جليلة، وضياعُ علاقات لا غنى للدعوة عنها، وتُخَلِّف وراء ذلك انطباعا سيئا عن الدعوة، وجراحا لن تندمل إلا بعد أمد بعيد بسبب الاندفاع الأهوج، والخلل في معرفة ملابسات الواقع، ولا يدل ذلك على قوة الموقف والثبات على المبادئ، بقدر ما يدل على خَبْط لا يناسب الدعوة، وطيْشٍ لا يَتلاءَمُ مع الحكمة.
· إصلاح ذات البين:
والآيات القرآنية دالة على وجوبه يقول تعالى ذكرُه:} فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {[الأنفال:1]، ويقول عز وجل:} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {[الحجرات:10].
وإذا لم يتصالح الدعاةُ إلى الخير، ويطفئوا جذوة الخلاف والنزاع وتبادلِ التُّهَم جرَّاء ذلك والأخذِ بالأخطاء، وتَركِ العفو والصفح، فَوَهْم إنشادُهم تَصالُحَ المجتمع وطمس معالم النزاع

---

(1) رواه البخاري 6069.
(2) رواه البخاري.

والعداوة فيه، وليس عجيبا أن يقع الخلاف، وإنما العجب كل العجب في انقياد الدعاة لحادي الفتنة وداعي الحمية جرَّاء ذلك الخلاف.
وقد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئا إلا أمر أحانت بينه وبين أخيه

شحناء فيقول اتركوا هذين حتى يصطلح).
ولا سبيل إلى ذلك ما لم يتنازل البعض عمَّا لا يمنع التنازل عنه، لخلق جو من الوفاق والصفاء، يسعى لخلقة المؤمن الهين اللَّين السهل القريب الذليل على المؤمنين، لا سيما الدعاة إلى الخير منهم، وإذا ما كان أحدُ الدعاة مُخطئا في حق أخيه، فالدفع بالَّتي هي أحسن والصفح والعفو سجايا يقتضيها التخلق بأخلاق الإسلام، ويفرضها عرفانُ سابق عهود المودة، وتَذكُّر سالف أيام الصفاء، وأحسن من قال:
أراك اتَّهمت أخاك الثِّقَهْ ... عندك مقت وعندي مقه ...
وأثنى عليك وقد سُؤتَني ... ما طيَّبَ العودُ مَنْ أحْرقَهْ

· عدم المؤاخذة بما فات:
ولا تنبغي مؤاخذة الدَّاعية بذنب تاب إلى الله منه، أو خطأ رجع عنه، فما من حكيم إلا وله هفوة، وما من جواد إلا وله كبوة، ومؤاخذة الدعاة بذنوبهم بعد التوبة منها وتتبع عوراتهم ليس من شيم الأخيار، إنما هو من عمل المتربصين بالدعوة إلى الخير وأهلها.
قال الإمام الشوكاني رحمه الله: " ومجرد وقوع التوبة وتحققها تمحو عنه ما اتصف به من سلب العدالة ويرده إلى الاتصاف بها " (1).
بل إن من المعروف عند أهل الحديث أن التوبة تنفي عن الراوي ما كان متَّصفا به من الجرح بسبب الذنب، فيوثق وتقبل روايته، هذا في أخذ الحديث عنه، ناهيك عن قبول دعوته للحق، يقول السُّيوطي رحمه الله في ألفيته في الحديث:
وَقدِّم الجرح ولو عدَّلَهُ ... كثرُ في الأقوى فإن فصَّلَهَ ...
فقال منه تاب أو نفاه ... وجهه قدم من زكَّاه

(1) السيل الجرار في مجلد واحد ص 776 في كتاب الشهادات عند كلامه عن الفاسق.

إنَّ من الواجب على الدَّاعية الذَّبَّ عن أخيه، ودفع التُّهَمِ عنه، والحكم له بالظاهر من محاسنه، والمعلوم من فضائله، حتى وإن وُجِّهت له سهام الاتِّهام ورَمَقَتْهُ عيونُ الرِّيَب، كما وقع في قصة كعب بن مالك في حديث توبته الطويل قال: (قال النبي صلى الله عليه و سلم وهو جالس في القوم في تبوك: مافعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت. والله يا رسول الله صلى الله عليه و سلم متفق عليه (رياض الصالحين 431)) فتأمل كيف دافع معاذ رضي الله عنه عن أخيه ذاكرا محاسنه ودافعا بشدة قول متَّهِمِهِ، مع إقرار النبي صلى الله عليه و سلم على ذلك.
· الوصل لا الهجر:
وعن أنس رضي الله عنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث) (1).
وعن أبي خراش حدرد بن أبي حدرد الأسلمي أن النبي صلى الله عليه و سلم

قال: (من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه) (2).
وقد ذكر البغوي أن " الهجران والتبري والمعاداة لأهل البدع المخالفين في الأصول، أما الاختلاف في الفروع بين العلماء فاختلاف رحمة، أراد الله ألا يكون على المؤمنين حرج في الدين، فذلك لا يُوجِدُ الهجرانَ والقطيعةَ، لأن هذا الاختلاف كان بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم مع كونهم إخوانا مؤتلفين رحماءَ بينهم. وتمسك بقول كل فريق منهم طائفة من أهل العلم بعدهم، وكل في طلب الحق وسلوك سبيل الرشد مشتركون " (3).
لقد مرت بنا جملة من الشمائل الحسان والسجايا الكريمة في " أخلاق الداعية " لا غنى له عنها في نفسه ودعوته يطيب معها الوصال ويثمر اللقاء، إذا لم يتخلق الدعاة بها فيما بينهم فستبقى دعوة المجتمع إليها عقيمة إلى حد كبير.

(1) رواه البخاري 6065) ومسلم (2560).
(2) رواه أبو داود 4914 بإسناد صحيح.
(3) شرح السنة 229/ 1.

إنها أخلاق بهية تنبئ عن نفس زكية تبدي البشاشة عند طلعتها في وجه طلق، ألف التؤدةَ والوقارَ وانتقاءَ أطايب الكلم، وقد روى البخاري عن عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:) اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم يكن فبكلمة طيبة) (1).
وقال سبحانه:} وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا {] الإسراء:53 [.
· مصلحة الألفة:
ومما يُبين ضرورةَ الحفاظ على الألفة كون مصلحتها مقدمة على كثير من المفاسد، قال العز بن عبد السلام: " الكذب سيئة محرمة إلا أن يكون لجلب مصلحة أو دفع مفسدة، كالكذب في حالة الإصلاح بين المتخاصمين، لأن مصلحة تأليف القلوب أحسن من مفسدة الكذب " (2).
وقال النووي: " فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب، ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحا كان الكذبُ مباحا، وإن كان واجبا كان الكذب واجبا " (3)، ثم ذكر حديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (ليس الكذّاب الذي يُصلح بين الناس، فينمي خيرا أو يقول خيرا.) (4)، وفي رواية لمسلم قالت: (ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس، إلا في ثلاث تعني الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها).
إنه ربما دخل بين الدعاة ذو وجهين، أو شامت، أو مؤثر للهوى، أو نحوهم ممن يقلب الحقائق ويتبع حظ النفوس فيسعى لتأجيج ضرام الفرقة، وإشعال نار الفتنة بين الدعاة بما يثيره من نقع الشرور ويبعث من عوائق الائتلاف مما يوجب الأخذ بالحذر ولزم اليقظة حتى لا تصاب الدعوة إلى الخير في مقاتلها فإن مخابرات الأنظمة الظالمة، وأصحاب الدعوات الباطلة أسعد ما يكونون باختلاف الدعاة فيما بينهم، وقذفِ بعضهم بعضا، واشتغالهم بذلك عن جوهر الدعوة وغايتها العظمى.

(1) البخاري 6023
(2) قواعد الأحكام في مصلحة الأنام ص 84.
(3) رياض الصلحين ص439
(4) رواه البخاري ومسلم (4921) وغيرهما.

إنه لا بد للدعاة من النَّقد الموضوعي المتحلي بمكارم الأخلاق، والمتجرد من هوى الأنفس، لا بُدَّ لهم من قبول الآراء وتوفير الأجواء المشجعة، وردها إلى ميزان الشرع القويم، فبذلك تتضح العلل، وتكتشف الحلول، وتجتمع الجهود، وتُقدَّر الإمكانيات، وتحيى روح الابتكار، ويتجلَّى الحق على سبيل القصد دون إفراط ولا تفريط.
إن ثمة تحديات كثيرةً تواجهها الدعوة إلى الخير، لا سيَّما في هذا الزمان مما يوجب اليقظةَ والأناة، والقوة في الحق، والصبرَ عليه بعيدا عن الاندفاع الأهوج والحمية الطائشة، أو التنازل المُنَمَّق والاستسلام المُمَنْهج.
وقد كان لظهور الديمقراطية والحرب على الإسلام باسم الحرب على الإرهاب- قلبا للمفاهيم وتغييرا للمناهج- وإطلاقِ العنان للعلمانيين، وصدِّ أجهزة الاستخبارات في بلاد الإسلام عن الدعوة الصحيحة أكبرُ أثَرٍ في زرع بُذور الانهزام، وغرس جذور الاستسلام في ساحات دعوية شاسعة، حتى ظهر ذلك الأثر على الأفراد والجماعات جليا لمن لم يكن هائما في التمييع باسم مراعاة الظروف وتقدير ملابسات الواقع، وتقديم مصلحة الدعوة الوهمية على النَّهج القويم ومقتضي الصراط المستقيم.
دعاة الإسلام الديمقراطي:
ومن ذلك الإسلام الديمقراطي أو الديمقراطية الإسلامية، وهو مشروع أمريكي خبيث، يهدف لتحييد شرع الله عن الأفهام وتغييب ضرورة تحكيمه من مناهج المسلمين، وقد بذل أعداءُ الدين في ذلك أموالاً طائلةً، وسخَّروا له مختلف الوسائل.
وقد سار مع ركبهم الكثيرُ من المنتسبين للدعوة إلى الخير، وركنوا إلى أطروحاتهم، ففتنوا المسلمين في دينهم متسترين وراء متطلبات العصر، وفهم الواقع، وغير ذلك مما هو في الحقيقة جهلٌ وانهزام.
ورغم ما في الديمقراطية من عَوار ومعاجزة لدين الله، كجعل الحكم لغير الله، والتشريع من دونه، والمساواة بين المتفاضلين، و رضا الكفار عن أهلها، ولا يرضون إلا عمن اتبعهم، وإنفاقهم الأموالَ لإقامتها، ولا ينفقونها إلا للصدِّ عن سبيل الله، والتشبه بهم، وطاعتهم، وجعل القرار للأغلبية، وفتح باب الحرية على مصراعيه، والتشاور في المعلوم من الدين بالضرورة، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الدعاة "الإسلاميين" من تبنِّيها، والدعوةِ إليها حتى طغت دعوتُه إليها على الدعوة إلى تعاليم الإسلام، بعد أن تفيئوا ظلال الدعوة الوارفة زمنا، وكأنَّ الديمقراطية هي المنقذ الحقيقي، أو هي الفرى، كلُّ الصيد في جوفه.

وهذا إفراط في الأخذ بوسائل الدعوة، وتفريط في المبادئ والثوابت، يتأكد بالمشاركة في الانتخابات وولوج المجالس التشريعية، ويبلغ هذا الخللُ ذرْوَتَه

ومنتهى خطورته عند الإقرار على الدستور والقول إنه لا يخالف شرع الله.
إنه لا دعوة صحيحة بدون الدعوة لإقامة الدين وتطبيق حدود الله، وأين هي الموادُّ القانونيةُ القاضيةُ بالسِّجن والغرامات المالية من القصاص وحُدودِ الزِّنى والسَّرقة والحِرابة والخمر المبينة في الكتاب والسنة خير بيان؟
سؤال من ضمن أسئلة كثيرة تُطرحُ على "الإسلاميين" المَشغوفين بالديمقراطية، والقائلين بموافقة الدَّساتير الوضعية للإسلام، ثُمَّ قبل الأخذ بما لا يُخالف الإسلام ما المانع من أخذ الإسلام من ينبوعه الصَّافي؟ فعلى الداعية تكثيفُ جهوده حتى يُحكَّمَ شرعُ الله، ويُذعنَ الناسُ لأمره ليَنْعمُوا في رحاب الإيمان، ولا يكون للقوانين الوضعية عليهم سلطان.
الحرب على المناهج:
وهي من ضمن الحرب على الإسلام تحت مُسمَّى الحرب على الإرهاب، وتُعتبر الدعوةُ إلى تحسين صورة الإسلام في عيون الكافرين مِحورا مُهمًّا من محاورها. وقد استخدمت لذلك وسائل كثيرة، بلغ تأثيرها أن أصبح كثير من الدعاة منتظما في صفوف المُمَيِّعين المحاربين لحقيقة الإسلام، عن قصد وعن غير قصد حتى جعلوا الإسلام استسلاما للواقع، وسَلْمًا لا حرب فيها، ولو على سبيل الدفاع مِمَّا جَرَّ إلى تعطيل الجهاد ووَضْع العراقيل أمامه، رغم احتلال بلاد المسلمين وتدنيس شعائرهم، وانتهاك حرماتهم، وتقتيلهم، وتشريدهم وتشتيتهم، والتنكيل بهم .. ناهيك عن أنات الثكالى، ولوعات اليتامى، وصيحات الأرامل، وغَيْرِ ذلك مما يُفَجِّرُ المآقي، ويُدْمي الأفئدة.
وآلَمَني وآلمَ كلَّ حرٍّ ... سؤالُ الدهر أين المسلمونا

فعلى الداعية التحريضُ غيرَ مُبالٍ بمناهج المستسلمين حتى يُشْعِلَ العزائم ويُؤَجِّجَ ضرام العزة في نفوس المدعوين، كيما يَسْتَعِدُّوا للجهاد، ويهبوا لاستعادة الأمجاد، يقول سبحانه:} إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {] التوبة:204 [.

الولاء والبراء:
إنه أحدُ دعائم الدعوة الصحيحة لا معنى للدعوة دونه، إلاَّ أن التَّوَجُّهات الدعويةَ الراهنةَ في الغالب تسعى لإذابته، والقضاءِ عليه تحت مُسمَّى الانفتاح ومُواكبةِ العصر، ومعايشةِ الآخر.
فالواجب على الداعية إحياءُ عقيدة الولاء والبراء، وتجسيدها واقعا في دعوته، فيحب أهل الإيمان ويواليهم، ويُبغض أهلَ الكُفر ويُعاديهم، ويَعيش مع إخوته المؤمنين في المسرَّات والأحزان، ويُناصرهم ويُبادلهم الوِداد والإخاء، مُهتَمًّا بأمرهم، قائما بشأنهم، وإن ابتعدت الأوطان، وتباينت الأجناس واللُّغات والألوان وسواء كانوا في فلسطين السليبة، أو في أفغانستان والعراق المغتصبتين، أو في الشِّيشان الجريحة، أو في كشمير المحتلة .. أوفي غيرها من بلاد المسلمين.
ولا سبيل إلى تحقيق ذلك حتى يَدْعُوَ بِصدق وإخلاص إلى عداوة أمريكا وإسرائيل وإلى البراءة منهما، وإعلان الحرب عليهما وعلى حلفائهما، وعلى كل محتل

لبلاد الإسلام، مدنس لشعائر الله، منتهك لحرماته، وإنه من المجاملات والهروب عن الحق، الدعوة إلى بغض اليهود، وقطع العلاقات مع إسرائيل، مع مباركة التواصل مع أمريكا وتوطيد العلاقات معها، وليست إسرائيل في الحقيقة سوى حصاة في صحراء أمريكا الإجرامية، أو قطرة من بحر كيدها.
كما يجب على الدَّاعية أن يستنكر بشدَّةٍ الارتماءَ في أحضان الظالمين والركونَ إليهم، من قِبَل المنتسبين للإسلام، المتسلطين على أهله بالقوة وسلطة القانون، ولا يزال الإحساس بالأخوة الإيمانية حيًّا إلى حدٍّ مَّا في المجتمع الشنقيطي، إلا أنه بدأ يتناقص بسبب عوامل التعرية الخطيرة، المتمثلة في تمييع الدين وتعتيم الحقائق، وتبقى مُهدَّدَةً بالزوال ما لَمْ تَستَقم الدعوة فيها على القصد حتى تَبلُغ بَرَّ الأمان.
ظلم الأنظمة:
لقد كان حريا بالأنظمة القائمة وجديرا بها أن تساند الدعوة إلى الخير وتؤيدها إذا لم تجعلها أهَمَّ أهدافها، لما فيها من نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة وإشاعة الأمن والوفاق، والحد من الجريمة والافتراق، ولأن الدعوة إلى الخير من وظائف الإمامة الأساسية، يقول سبحانه} الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {] الحج:41 .[

إلا أنه غابت حقيقة الإمامة التي هي حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين، ومن المعلوم أن ثمة حربًا على الإسلام مُمَنهَجَةً، تسعى لاستئصال الإسلام وطمس معالمه، أخذت طابعها الدِّينيَّ حتى أصبحت الأنظمة الحاكمة في بلاد الإسلام أهمَّ سلاح فيها لقمع من أراد رفع راية الإسلام أو رام رفعَ الرأس به.
فسَخَّرت لذلك عيونا كثيرة وقوانينَ للتضييق على الدَّعوة إلى الخير في المساجد وغيرها، ومصادرة عمل المنظمات الخيرية والدعوية، وطاردت الدعاة باسم الحفاظ على الأمن .. وغير ذلك} وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {] الأنفال:30 [.
غير أن ذلك كله لا ينبغي أن يضعف عزائم الدعاة، أو ينقص من رغبتهم الجامحة في نشر الخير لا يخافون عيون الظالمين، ولا يخشون سجونهم باذلين مهجهم في سبيل إقامة الحق، إذ لا سبيل إلى إقامة الدين واستقامة الدعوة ما لم يصدع الدعاة بالحق في وجوه الأنظمة المتغطرسة، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، خُصوصا فيما يتعلق بتهميش شرع الله والانصياع لإملاءات الكفار، والتشبه بهم في أمور الحكم وغيرها، وتوليهم الذي بلغ حد تسليمهم المسلمين.
وهو طريق شاق محفوف بالمخاطر والمكاره، لا يسْلُكُه إلا من كان صابرا عليه إيمانا، مستعدا لتحمل تبعاته احتسابا، يقول سبحانه: {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ {] إبراهيم:12 [.
تلبيس المبطلين:
هذا وقد لبَّس كثيرٌ من المنتسبين للعلم والدعوة على المسلمين دينهم وفتنوهم عن قصد وعن غير قصد، بسبب مخالطتهم للحكام وأهل القرار، والتي كان من نِتاجِها الإقرار على الكثير من الباطل فما دعوا لتحكيم شرع الله ولا إلى إلغاء

القوانين الوضعية، ولا تبرؤوا من اليهود وأوليائهم المحاربين للمسلمين، ولا أنكروا الركون إليهم، بل أثنوا على قراراتهم، ومدحوا توجُّهاتهم وبرَّروا العلاقات المشينة الذميمة رغم سيرهم سير الدعاة إلى الخير، وقيامهم في مقامهم وادِّعائهم الأخذ بزمام الدعوة، والأهلية للإفتاء، مِمَّا جعل كثيرا من الناس يَلْهث خلفهم ويتبنَّى مِنْهاجَهم.

وقد كان علماءُ السلف وقَّافين عند الحق، مستشعرين تَأَسِّي النَّاس بل دفعهم ذلك إلى اختيار القتل على فعل الحرام، رغم الإكراه، حتى لا يَقتديَ الناسُ بهم في الحرام (1). وما ذلك إلا لأن التَّأسِّي بالأفعال كما قال الشَّاطبي: " بالنسبة لمن يعظم في الناس سر مبثوث في طباع البشر، لا يقدرون على الانفكاك عنه بوجه ولا بحال ولا سِيَّما عند الاعتياد والتَّكرار " (2).
وقال ابن القيم رحمه الله: " علماءُ السُّوء جَلَسُوا على باب الجنة يَدْعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلُمُّوا قالت أفعالُهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أوَّلَ المستجيبن له، فهم في الصورة أَدِلاَّء، وفي الحقيقة قطاع طرق " (3).
فعلى الداعية أن يستشعر ذلك ليَسُدَّ الخلَلَ، ويُصحِّحَ الأخطاء، ويبين الحق والصَّوابَ حتى لا يغتَرَّ الناسُ بالباطل وإن جاء مِن مَظِنَّة الحق.
البلاغ .. ويهدي الله من يشاء:
إن على الداعية السَّعْيَ لإقامة الدين ودلالة الناس على الخير، مستشعرا أن الأمرَ كلَّه لله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وحسبُ الداعية أن يجتهد في دعوته ويَسلُك فيها أحسن المسالك، ولا ينبغي أن يدفعَه حِرصُه على هداية الناس إلى الانحراف عن القصد في دعوته إلى أحد جانِبَي الإفراط والتفريط.
يقول سبحانه:} فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ {[الغاشية:21 - 22].
وقد قال صلى الله عليه و سلم: (إنَّ من الناس مفاتحَ للخير مغاليقَ للشر، ومن الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل اللهُ مفتاحَ الخير على يديه، ووَيْلٌ لمن جعل الله مفتاح الشر على يده) (4).

_____
(1) راجع البداية والنهاية 244/ 9.
(2) الموفقات 249/ 4.
(3) الفوائد ص 80.
(4) رواه ابن أبي عاصم 297 من حدث أنس بسند حسن.

إنه لا سبيل إلى إقامة الدعوة الصَّحيحة في هذا المجتمع النَّبيل ذي الأصالة والكرامة والحفاظ على ديمومتها و استمراريتها إلا إذا الْتَزَمَ الدُّعاةُ فيه بالأخلاق النبوية الكريمة، والشمائل العظيمة، وقَبِلُوا النَّقدَ البناء، وأحيوا روحَ التَّعاون بينهم بما تمليه الأخوة الإيمانية، وتقتضيه المحبةُ في الله، مع مراعاتهم لأحوال المدعوين وظروفهم، والأخذ بالوسائل المناسبة لتبليغ الدعوة على أحسن حال وأكمل وجه وفقًا للهُدَى بعيدًا عن الغُلُوّ والجفاء، والمجاوزة والتقصير، و لكثيرًا ما تَدَخَّلَ الشيطانُ عند حِرْصِ الدَّاعية على استجابة المدعُوّين، لينحرفَ به عن

سبيل القصد.
قال ابن القيم رحمه الله: " وما أمَرَ الله بأمر إلاَّ وللشَّيطان فيه نزعتان، فإما إلى غُلُوٍّ ومجاوزة، وإمَّا إلى تفريط وتقصير، وهما آفَتان لا يَخلُصُ منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه و سلم، وتَرَكَ الناسَ وآراءَهم لما جاء به، لا مَن تَرَك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم.
وهذان المَرَضان الخطيران قد استَوْلَيا على أكثر بني آدم، ولهذا حذَّر السَّلفُ منهما أشَدَّ التَّحذير، وخوَّفوا مَنِ ابْتُلِيَ بأحدهما بالهلاك، وقد يجتمعان في الشَّخْصِ الواحد، كما هو حال أكثر الخلق، يكونُ مُقَصِّرًا في بعض دينه غالبا، مُتجاوِزًا في بَعضِهِ، والمَهْدِيُّ مَن هداه الله " (1).
ظلال الدعوة:
لقد عاش المسلمون قرونا من الزمان كأروع ما تكون يستظلون بظل الشريعة السمحاء، يتبادلون كؤوسَ الصَّفْوِ والوُدِّ، ويتعاطون موائدَ الوفاء والسَّداد وقاموا بحق الله حتى أذعنت لهم العربُ والعجمُ، وسادوا الدنيا بالدين، وسَاسُوها بشريعة الأمين، ولم يزل هَدْيُ النبي صلى الله عليه و سلم للمسلمين هديا ومنهجا مُتَّبَعا، واضحَ المعالم، يَدْعون إليه من خرج عنه، ويُقوّمون من اعوجَّ عنه، فالخير كل الخير في الدعوة إليه، ودلالةِ الناس عليه بحكمة وعلى بصيرة.
قال السَّعْدِيُّ في تفسير قوله تعالى:} ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ {] النحل:125 [" أي ليكُنْ دعاؤك للخلق مسلمِهم وكافرِهم إلى سبيل ربك المستقيم، المشتملِ على العلم النافع والعمل الصالح (بِالْحِكْمَةِ) أي كل أحد حسب حالة وفهمه

(1) الروح 752/ 2.

وقبوله وانقياده ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل و البداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبولُه أتم. وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة الحسنة وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، إمَّا بما تشتمل عليه الأوامرُ مِن المَصالح وتعدادها، وإما بذكر إكرام مَنْ قام بدين الله، وإهانَتِه مَنْ لم يَقُمْ بِه.
وإما بذكر ما أعد الله للطَّائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعُوُّ يرى أنَّ ما هو عليه حق، أو كان داعيةً إلى الباطل، فيُجادَل بالتي هي أحسن، وهي الطريق التي تكون أَدْعَى لاستجابته عقلا ونقلا، ومن ذلك الاحتجاجُ عليه بالأدلة التي كان يعتقدُها، فإنه أقرب إلى حُصُولِ المقصود، وألا تُؤَدِّيَ المجادلةُ إلى خِصام أو مشاتمة تَذْهَبُ بمقصودها ولا تحصُلُ الفائدةُ منها، بل يكون القصدُ منها هدايةَ الخلق إلى الحَقِّ، لا المغالبة ونحوُها ... " (1).
فعلى الداعيةِ ألا يَغفل عن هذا الجانب، وقد تطرَّقنا له بإسهاب فيما فات من هذه الحلقات، وقد كتبها سجين تذكرةً لِنَفْسِهِ، ورغبةً في الوصال بعد تَوَقُّفِ دَرْسِهِ وَنُصْحًا للدُّعاة، علَّها تُساهم في نشر الدعوة في شنقيط، بعيدًا عن الإفراطِ والتَّفريط فَرَحِمَ اللهُ مَن نظر فيها بعين الإنصاف، وسَدَّدَ ما فيها من اختلاف.

محمد سالم ولد محمد الأمين المجلسي
السجن المدني- نواكشوط- موريتانيا 1428 هـ

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلا المنان، طبعة في مجلد واحد ص 452.